

رومان رولان

انظروا نبتت

5.8.2017

روايات جائزة نوبل

8

الدار المصرية اللبنانية ترجمة فتحى العشري

آنطوينيت

ANTOINETTE

رومان رولان

نوبل عام / 1915

فتحى العشرى

ترجمة

©

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250

فاكس: ٢3909618 - ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 1997 / 5823

الترقيم الدولي : 0 - 358 - 270 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : محرم 1418هـ - مايو 1997 م

الطبعة الثانية : جمادى الأولى 1429هـ - يونيو 2008 م

الفصل الأول



١٦
١٤٣٥

أسرة آل جنان من تلك الاسر الفرنسية العريقة ، استقرت منذ قرون في منطقة ريفية لم تعرف الغزو الاجنبى . . وفي فرنسا توجد أسر عديدة من هذه النوعية ، برغم مااستجد من تغيرات على المجتمع . . وهى اسر تحتاج الى انقلاب خطير حتى يتم انتزاعها من تلك الأرض التى ترتبط بها بروابط عميقة لا تدرى كمها . . ولا دخل للمنطق فى هذه الروابط ، ولا دخل ايضا للمصالح الا فيما تدر . . اما العواطف التى تثيرها الذكريات التاريخية فلا أهمية لها الا عند بعض الأدباء . . وأما مايوطد تلك الروابط القديمة التى لاتهنون ، فهو الشعور الغامض العارم المشترك بين أذكى الناس وأبسطهم ، بأنهم منذ قديم الزمان قطعة من هذه والارض ، يحيونها ويتنسمون هوائها ويسمعون دقات قلبها مع قلوبهم . كأن الناس والارض شخصان متجاوران على مهد واحد ، يشعران بالخلجان الخفية ويحسان بأدق الفواصل بين الساعات والفصول والايام المشرقة والمعتمة على حد سواء ، وكذلك اصوات الأشياء وصمتها ، فأجمل البلاد وأسعدها ليست تلك التى تأسر القلوب دونها عن سواها ، ولكنها البلاد الأقرب الى البساطة والتواضع ، تقترب من الانسان وتحادثه بلغة الود والألفة .

هكذا كانت تلك البقعة فى وسط فرنسا حيث عاشت أسرة آل جنان : أرض مستوية ، رطبة ، ومدينة قديمة ناعسة ، يرى شكلها الناعس وقد

انعكس على مياه القناة الراكدة الأسنة ، وحوها حقول ممتدة ومراع محروثة وجداول ماء وغابات كثيفة . . فلا منظر جذاب ولا بناء قديم ولا تذكارات ، لا شىء على الاطلاق يجذب الانسان ، فكل شىء انما يربط الانسان فحسب . . ولكن ثمة قوة خفية تكمن فى هذا الفتور وذلك الخمود ، فاذا تذوقها الانسان مرة لايد وأن يعانى فيها وأن يثور عليها . أما الانسان الذى يتطبع بطباعها لفترات طويلة فلا يمكنه أن يفضل عنها ، فقد امتلأ بروحها ، بهذا السكون السائد ، وهذا السأم المنتظم ، وهذه الرقابة المملة ، وكلها اشياء ذات جاذبية خاصة ومتمعة لا حدود لها ، وان لم يدرك الانسان مداها ، فهو يسخر منها ولكنه يجبها فى الوقت نفسه ولايمكن أن ينساها .

عاش آل جنان حياتهم فى هذا البلد ، ويستطيع الانسان أن يتتبع تاريخها فى المدينة وضواحيها والذى يعود الى القرن السادس عشر ، عن طريق واحد من شيوخ العائلة - وهو ما يحدث كثيرا - كرس وقته لاعداد نسب السلالة ، فهم أشخاص مغمورين وان كانوا مجدين ، وهم فلاحون ومزارعون وحرفيون وكتبة وموثقون ، وهم من الريف استقروا فى نهاية المطاف فى مركز من مراكز المقاطعة ، وفيه أخذ أوجستان جنان والد جنان الحالى يزاول عمله كصيرفى بحكمة بالغة ، كان رجلا ماهرا ماكرا صبورا كالفلاحين وكان فاضلا دون ان يكون مترمنا ، نشطا فى عمله مرنا مع الحياة ، أوصله مكروه وصراحته وثروته الى ان يكون محترما له هيبته فى المنطقة التى تمتد عشرة فراسخ حول المركز ، كان قصيرا مكتنزاً مفتول العضلات ، له عينان تشع منها الحيوية ووجه أحمر ضخم تبدو عليه آثار الجديرى ، وكان الناس فيما مضى يتحدثون عنه كشاب يتعقب الحسان وان لم يفقد هذه العادة بعد ، كان يحب المرح بما فيه من اباحية ويحب الطعام الشهى أيضا . . فعلى المائدة كثيرا

ما يواجه ابنه انطوان وهو يتحداه في الاكل والمرح ومعهم بعض الاصدقاء
القدامى مثل القاضي والموثق وكبير كهنة الكنيسة ، وكان جنان العجوز لا
يتورع عن التهكم على القساوسة ، كما كان في استطاعته ان يجلس معهم
على مائدة الطعام اذا كانوا ممن يأكلون بشراهة كأشخاص أقوياء البنية من
طراز سكان رابلية حيث يتلاحق شرر الفكاهة الجريء على المائدة ،
وضربات أيدي وضحك وصخب ، وكان صدى ذلك المرح يصل الى الخدم
في المطبخ والى الجيران في الشارع فيشتركون فيه جميعا .

أصيب أوجستان العجوز بذبحة صدرية في يوم من أيام الصيف الشديد
الحرارة عندما شرع في النزول الى قبو المنزل بعد أن شمر ساعديه ليعبىء النيذ
في زجاجات وبعد أربع وعشرين ساعة كان قد انتقل الى العالم الآخر الذى
لم يكن يحسب حسابه على الاطلاق ، رحل مزودا بكل اقداس الكنيسة مثل
أى بورجوازي ريفى أصيل مؤمن بأفكار فولتير يستسلم للسر المقدس في
آخر لحظة حتى لاتضايقه النساء ، لأن الأمر سيان لديه ولأنه لم يكن
يستطيع ان يجزم بما سيحدث بعد ذلك .

وتولى ابنه انطوان اعماله ، كان قصيرا بدينا احمر الوجه ، سمح الاسارير،
حليق الذقن ، مرسل الشعر على الخدين . . وكان متسرعا في حديثه
متلعثما ، كثير الجلبته ، يبالغ في الاشارات القصيرة المليئة بالحيوية ، ولم يكن
يتمتع بذكات أبيه في الشئون المالية ولكنه كان نابها في ادارة الأعمال ، اذ لم
يكن عليه الا ان يتابع في هدؤ المشروعات التى بدأت ثم أخذت في النمو مع
مرور الزمن . وقد اكتسب في المركز شهرة رجال الأعمال ، وان لم يكن له
فضل في نجاح تلك الأعمال ، فهو لايساهم بخير الجد والانتظام .

كان شريفا كل الشرف وكان يبعث في كل مكان شعورا بالتقدير وهو
جدير به وكلنت معاملته للناس تتميز باللطف وعدم الالتواء ، بل فيها كثير

من عدم الحيلة والكلفة ولأن تعامله كان يعبر عن مشاعره الطبيعية فقد تمتع بحب الناس بها يبشر بالخير ، سواء في مدينته او في القرى المحيطة . . صحيح انه لم يكن مبذرا ، الا أنه كان يتمتع بشعور فياض ، تتروق عيناه بالدموع في يسر ويثيره مشهد البؤس اثاره صادقة تدعو البائس نفسه الى التأثر .

كانت السياسة تشغل تفكيره تماما ، مثل معظم رجال المدينة الصغيرة ، وكان جمهوريا معتدلا ، شديد الحماس في اعتداله ، حرا شديد التمسك بحريته ، وطنيا يكره رجال الدين مثل أبيه كراهية شديدة كان عضوا بالمجلس البلدى يسعده ويسعد زملاءه أن يقوموا بعمل مضحك ضد قسيس القرية أو واعظ الصيام الذى كان يثير الحماس بدرجة كبيرة بين النساء المدينة . علما بأن هذه الكراهية لرجال الدين في المدن الفرنسية الصغيرة كان دائما من أسباب الخلافات العائلية التى تتمثل في العراك الصامت العنيف بين الأزواج والزوجات ، وهو عراك لا يخلو منه أى بيت .

كان انطوان جنان يدعى الموهبة الادبية وكان كأبناء الريف من جيله ينهل من الأدب اللاتينى الكلاسيكى الذى كان يحفظ منه عن ظهر قلب بعض الصفحات وكثيرا من أمثال لافونتين ويوالو خاصة . والمعروف أن يوالو هو صاحب كتاب الفن الشعرى ، وكتاب اللوتران . كما كان يحفظ لفولتير مؤلف « العذراء » ولصغار الشعراء في القرن الثامن عشر . وأخذ يجتهد في أن ينظم الشعر على منوالهم . ولم يكن هو الوحيد بين معارفه ممن استهوتهم هذه المسألة التى ازدادت بها شهرته فكانت تروى عنه فكاهات شعرية ورباعيات ومقطوعات وشعر هجائي وأغن بعضها جرىء ، لانتقصها روح المرح . ولم يفته كذلك أ يتحدث عن أسرار الطعام الشهى على طريقة دانتي الشهير .

هذا الرجل القصير القوي ، المرح ، النشط ، تزوج من فتاة ذات طباع تخالف طباعه تماما ، هي ابنة قاضى البلدة واسمها لوسى دى فيليه . وآل دى فيليه أو ديفليه فقد كان الاسم مشهورًا على مرّ الأيام ، كما تشطر الحصة بعد وقوعها ، كانوا قضاة كابرًا عن كابر وهم ينتمون الى الجنس القديم فى العنصر البرلمانى الفرنسى ممن كانت لديهم فكرة رفيعة عن القانون والواجب وآداب اللياقة الاجتماعية ، كما كانوا يتمسكون بالكرامة الشخصية ولاسيما المهنية ، محصنين بنزاهة مطلقة على طريقة برودوم . وفى القرن الماض كانوا قد اتصلوا بمذهب الجانسينزم الثورى فورثوا عنه ذلك الشعور بالاحتقار للعقلية الجزويتية الى شىء من التشاؤم وقليل من التذمر فى الوقت نفسه - لم يروا الحياة على صورتها الجميلة وبدلا من أن يسووا مشكلاتهم التى كانت تصادفهم كانوا على استعداد لاضافة مشاكل أخرى اليها حتى تحق لهم الشكوى . وكانت للوسى دى فيليه بعض هذه الطباع بينما كان زوجها على عكس ذلك متفائلا دون أن يكون مسرفا فى تفاؤله . كانت ممشوقة القوام تزيد عليه طولا بمقدار الرأس ، نحيفة القد ، تعرف كيف تختار ملابسها بأناقة وان كانت غير مكتملة حتى تظهر دائما وعمدا أكبر سنا من حقيقتها كانت ذات فضائل أخلاقية عالية ولكنها كانت صارمة مع الناس فلم تكن تتسامح فى الخطأ الواحد ولا فى أيسر انحراف ، مما جعل الناس يعتقدون فيها البرود والازدراء ، كانت ورعة للغاية ، وكان هذا الورع سببا فى المناقشات المتصلة بين الزوجين ومع ذلك كانا متحابين ، ومهما حدث بينهما من نزاع لم يكن أحدهما يستغنى عن الآخر . . لأن أحدهما لم يكن أكثر واقعية من الآخر . أما هو فكانت تنقض الخبرة بنفوس الناس ، فهو يعرض نفسه لخداع دائم أمام الوجوه الطيبة والكلمات المعسولة ، أما هى فكانت تنقصها الخبرة فى شئون الاعمال ؛ فقد ظلت بعيدة عنها ولم تهتم بها .

كان لهما طفلان ، فتاة تسمى أنطوانيت وصبي يسمى أوليفيه . كانت أنطوانيت تكبر أختها بخمس سنوات .

كانت أنطوانيت جميلة سمراء ، ذات وجه مستدير فرنسي رشيق ، في ملامحها براءة ، لها عينا تشع منها الحيوية وجبهة ناتئة وذقن دقيق وأنف صغير مستقيم كذلك الذى قال عنه مصور فرنسي قديم « من تلك الأنوف الحادة النبيلة المتناهية الجمال ، به خلجة طفيفة لاتكاد ترى ، تعطى ملامحها حيوية وتدل على الحركات التى تدور فى نفسها عندما تنصت ، وكانت تدين لأبيها بالمرح وعدم الاكتراث .

أما أوليفيه فكان أشقرا رقيقا ، قصير القامة كأبيه وان كانت طبيعته تختلف عنه تماما ، تعرض أثناء طفولته لأمراض شديدة مستمرة ، وبالرغم من أن هذا جعله مدللا فان ضعفه الجسمانى جعله وهوى فى سن مبكرة صبيا خياليا يميل الى الحزن قليلا ، كما جعله يخاف الموت ، لاسلح له فى الحياة ، يظل وحيدا ميالا للوحشه والانفراد ، يهرب من تجمع الأطفال ، اذ كان يشعر بعدم الارتياح معهم كان يكره لعبهم وشجارهم ويشمئز من عنفهم ويدعهم يصربونه لا لنقص فى شجاعته ولكن بسبب الخجل اذ كان يخشى الدفاع عن نفسه كما يخشى ان يؤذى أحدا . ولولا انه كان يحتذى بمكانة أبيه لعانى من زملائه كثيرا .

كان رقيقا حساسا مرهفا بشكل مرضى ، فأى كلمة أو لمحة عطف أو عتاب توجه اليه كفيلة بأن تجعله يجھش بالبكاء ، مما دعا أخته الاكثر صحة أن تسخر منه وتلقبه بالنافورة الصغيرة .

كان الطفلان متحابني من كل قلبيهما ، ولكن الاختلاف الواضح فى طبعهما كان يجعل من الصعب عليهما العيش معا . كان كل منهما يسير فى

اتجاه وراء أحلامه وخياله أنطوانييت كانت تزداد جمالا كلما كبرت ، تعرف ذلك وتسمعه بأذنيها ولهذا كانت سعيدة ، أخذت تنسج لنفسها روايات عن المستقبل . أملا أولففيه النحيل الحزين فكان يشعر في قراءة نفسه بأن المجتمع يחדشه كلما اتصل به ، لذا كان يلجأ الى عقله الصغير المحدود يقص لنفسه شتى القصص ، وكان في حاجة انثوية ملححة الى أن يكون محبا ومحجوبا . وبما أنه كان يعيش وحيدا بعيدا عن أولئك الذين في سنه فقد اصطنع صديقين أو ثلاثة أسمى الاول جان والثاني ايتين والثالث فرنسوا . كان دائما معهم وغائب الذهن عن حوله . وفي الصباح عندما كانوا يتزعمونه من فراشه كان ينسى نفسه تاركا ساقيه الصغيرتين العاريتين متدليتين من السرير . وأحيانا كثيرة كان يرتدى جوربين في ساق واحدة ، بل كان ينسى يديه في صحن الماء وينسى نفسه على مائدة العمل وهو يكتب أو يتعلم درسا . فيستسلم للأحلام لساعات ، ثم يلاحظ فزعا وفجأة أنه لم يتعلم شيئا بعد . وفي العشاء كان يتصل حين يوجه اليه الكلام ، فيجيب بعد دقيقتين من توجيه السؤال ويتوقف وسط عبارته وقد نسى ما يريد أن يقول . كان ينكمش منصتا لهمس أفكاره مستسلما للأحاسيس التي كانت تملأ أيام الريف الرتيبة التي تنساب في بطاء ، فكان يفكر في البيت الكبير الذي كانوا يسكنون جزءا منه تاركين جزءا منه تاركين نصفه خاليا ، ويفكر في الأقيية ومخازن الحبوب الضخمة المخيفة ، وفي الغرف المقفولة المبهمة ومصاريع النوافذ المغلقة والأثاث المغطى ، وفي المرايا والشمعدانات الملفوفة ، وفي الصور العائلية القديمة ذات الابتسامات التقليدية ، من لوحات العهد الامبراطورى التي تمثل البطولة الفاضلة والاباحية مثل السيياد وسقراط عند المحظية ومثل أنطواخومس وستداتونيس ، ومثل قصة ايبامينونداس وبليزير الشحاذ . . وفي الخارج كان يفكر في صوت الحداد

يعمل في الورشة المواجهة ورقصة المكارم العرجاء على السندان وصوت لهث المنفاخ الضعيف ورائحة القرن المحروق ، ثم صوت مكارم الغسالات الجالسات القرفصاء على شاطئ الماء وصوت الضربات الخافتة من سكين الجزائر في البيت المجاور وخطوة حصان تدق على أرض الشارع المبلطة ، وصرير الطلمبة والكوبرى وهو يدور على القناة والمراكب الثقيلة المحملة بأكوام الخشب وهى تمر بهدوء تجر بالحبال ، كل ذلك أمام الحديقة المرتفعة وفنائها الصغير المبلط الذى كان به حوض مربع من الطين حيث تنمو زنبقتان وسط زهور القرنفل والبيتونيا ومجموعاتا الغار والرمان الزهرة الموضوعية فى صناديق على شرفه تعلو القناة . وأحيانا تسمع ضوضاء السوق فى الميدان المجاور ، الفلاحون بقمصانهم الزرقاء اللامعة والخنازير الصائحة . وفى يوم الأحد فى الكنيسة كان السماسى يترنم بنغمات نشاذ وكان القسيس العجوز ينام وهو يرتل القداس . وطريق المحطة حيث النزهة العائلية وهم يقضون الوقت فى تبادل التحيات برفع القبعات مع آخرين ممن كانوا يعتقدون أنهم ملزمون بالنزهة معهم حتى يصلوا الى الحقول المشمسة التى تهتز فيها القناير وترتعش الاشجار المترامية على الجانبين بطول مياه القناة البراقة الراكدة . ثم هذه العلامات الكبيرة والأكلات التى لا تنتهى حيث يدور الحديث حول مسائل الاكل بتلذذ لأنهم جميعا كانوا خبراء فى فن الطعام ولأن الشراهة فى الريف هى الشغل الشاغل . وكانوا يتكلمون ايضا عن الأعمال وعن الموضوعات المرححة وعن الامراض بتفاصيل لانهاية لها ، كان الصبى الصغير وهو جالس فى ركنه لا يسمع له صوت اكثر من صوت فأر صغير يقرقط ولا يأكل وإنما ينصت بكل أذنيه ، لا يفوته شىء وكان خياله يعينه اذا ما فاته شىء من الحديث . كان يملك موهبة فريدة تجعله يفكر فيما لم يخطر بباله من قبل وربما لم يفهمه ، وهذه الموهبة يمتاز بها معظم أبناء

العائلات العريقة حيث انطبعت في أذهانهم آثار قرون من الزمان وكانت تدور في المطبخ عمليات غامضة لذيدة ودموية. ثم الخادمممة العجوز التي كانت تروى الحكايات الهزلية والمفزعة ، وأخيرا كان الليل بالخفافيش الصامته والفرع من الأشباح المخيفة التي كان يعلم أنها تتزاحم وتضطرب في باطن البيت العتيق كالفتران الكبيرة ، والعنكبوت الضخم ، وأيضا الصلاة بجانب الفراش وهو لا يسمع ماتتمتم به شفتاه . وكذلك صوت جرس المستوصف المتقطع المجاور للبيت وهو يعلن بدقاته ساعة النوم للراهبات ، والسريير الأبيض جزيرة الأحلام .

كانت أروع أوقات السنة هي تلك التي يقضونها في ضيعة العائلة على بعد فراسخ من المدينة في الربيع والخريف ، وهناك ، حيث لا يرى أحد ، يستطيع الانسان أن يحلم كما يشاء ، وكما هو الحال بالنسبة لمعظم البرجوازين الصغار فقد حيل بين الطفلين وبين العامة من الناس كالخدم والمزارعين ، أولئك الذين كان يشعر الطفلان نحوهم في الحقيقة بشيء من الخوف والاشمئزاز ، ولقد أخذوا عن أمهما احتقارا أرستقراطيا أو بعبارة . . أدق برجوازيا بالذات ، احتقارا لا ولئك الذين يعملون بأيديهم ، كان أوليفيه يقضى طيلة أيامه قابعا في فروع شجرة من أشجار الفريق يقرأ القصص الساحرة مثل الاساطير القديمة الأخاذة وحكايات موزيوس أو مدام دولنواي أو الف ليلة وليلة أو روايات الرحلات لانه كان يتوق الى معرفة الاقطار البعيدة . أحلام تسبح في المحيطات كتلك التي . . تأسر القلوب للصبية في المدن الصغيرة داخل القاطعات الفرنسية . كانت مجموعة الشجيرات الملتفة تحفى عنه المنزل ، فكان يمكنه الاعتقاد بأنه ابتعد ، مع أنه كان يعرف قربه ، ولهذا كان راضيا لأنه لم يكن يجب الابتعاد وحده كثيرا ، فقد كان يشعر اذا ما ابتعد أنه فقد فن الطبيعة . كانت الأشجار تتماوج

حوله ، وبين اوراق الشجر المتجمعة كأعشاش الطيور ، وكان يرى على بعد الكرامات المصفرة والمراعى الطبيعية حيث ترعى الأبقار المبرقشة التى يملؤ صياحها البطيء صمت الساكن ، وكانت أصوات الديكة الثاقبة تتردد من مزرعة لأخرى ، كانت تسمع الات ضرب القمح فى الأجران تتكرر فى غير انتظام . وفى وسط هذا السكون الشامل كان هناك فيض متصل من حياة محمومة لآلاف وآلاف من الكائنات الحية . وكان أوليفيه يلاحظ بعين قلقه طواير النمل التى تسير فى سرعة دائمة وجموع النحل ذات الطنين الذى يشبه صوت الأرغن وقد أنقلت بالغنيمة التى أتت به من رحيق الزهور ، والزنابير الجميلة البلهاء التى لاتعرف ماذا تريد . كان يراقب عالم الحشرات المشغولة التى تبدو وكأن بها رغبة ملحة فى أن تصل الى مكان ما . . ولكن أين ذلك المكان ؟ انها لاتعرف لنفسها هدفا فهى أن تصل الى مكان ما . . ولكن أين ذلك المكان ؟ انها لاتعرف لنفسها هدفا فهى غير مبالية بذلك . ويرتعد أوليفيه وسط هذا العالم المعادى الذى لايبصر ماحوله . يرتعد كالخرنقة لصوت ثمرة تسقط من شجرة صنوبر او لفرع شجرة جاف ينكسر . وكان يهدىء من روعة سماعه صوت حلقات الأرجوحة حيث تتأرجح أنطوانيت بعنف فى الطرف الاخر من الحديقة .

كانت أنطوانيت تحلم هى الأخرى على طريقتهما : كانت تقضى تقضى طوال اليوم فى الحديقة باحثة فى كل مكان ، تأكل من كل شىء وتستطلع كل شىء ، تضحك وتلتقط حبات العنب وكأنها عصفور وتنزع الخوخ من عريشته فى خفية تتسلق شجر البرقوق تارة أو تحبط عليه وهى تمر خبطات خفيفة خفية ليتساقط منه الثمر الذهبى كالطر ، يدوب فى الفم كشهد معطر ، أوكانت تقطف الأزهار رغم أن ذلك ممنوعا وهى تسرع فتتنزع وردة كانت ترغبها منذ الصباح وتحلص بها الى الكشك فى طرف الحديقة ، وهناك

تدفن أنفها الصغير بمتعة في الوردة وتقبلها ، ثم تخفيها شيئا فشيئا في صدرها . وكانت لها هوية أخرى حلوة لكنها محرمة ، هي أن تحلج حذاءها وجواربها وتسير حافية القدمين ، على الرمل الطرب ، الممرات وعلى الحشائش المبللة في الأرض المخضرة وعلى الطوب الثلج في الظل أو الحارق في الشمس ، أو تسير في الغدير الصغير الذي ينساب على حافة الخميعة ، حيث تمس بقدميها وساقيها وركبتيها الماء والارض والضوء ، وكانت تنظر الى يديها الشفافتين في ضوء الشمس وهي مستلقية في ظل شجر الصنوبر وتمر بشفيتها على ذراعيها الرقيقيتين الممتلئتين الناعمتي اللمس كأنها الحرير .

وكانت تصنع تيجانا وعمودا وفساتين من أوراق شجر اللبلاب وأوراق شجر البلوط ، وكانت ترتشقه بالمسك الأزرق ، وأشواك الفينيت الحمراء وأغصان الصنوبر الصغيرة بشمارها الخضراء ، فكانت تبدو كأميرة صغيرة متوحشة ، وكانت ترقص بمفردها حول نافورة الماء فكانت تدور وتدور وذراعاها ممدودتان حتى يدور رأسها وحتى تسقط على الأرض المخضرة مخبئة وجهها في الحشيش ضاحكة من كل قلبها مدة طويلة دون أن تستطيع مقاومة الضحك ودون أن تعرف ما الذي يضحكها .

وهكذا كانت تمر أيام الطفلين ، كانا علي بعد خطوات من بعضهما ولكن لايهم أحدهما بالآخر إلا حين يحلو لأنطوانيت أثناء مرورها بأخيها أن تداعبه فتقذفه في أنفه بقبضة من ورق الصنوبر الابرية أو تهز شجرته مهددة اياها بأن تسقطه من فوقها . أو تخيفه فتلقى بنفسها عليه وهي تصيح فجأة:

- هو! هو! ..

كانت تعتربها رغبة ملححة في مشاكسته ، فتجعله يهبط من شجرته متظاهرة بأن أمه تناديه وحين يهبط تصعد مكانه ولا تتحرك على الاطلاق ،

وعندئذ يضجر أوليفيه ويهدد بالشكوى ، ومع هذا لم يكن هناك خوف من أن تبقى أنطوانيت طويلا فوق الشجرة فهي لاتستطيع البقاء اكثر من دقيقتين فى راحة ، وبينما هى تستفزه على هواها حتى يوشك على البكاء تنزل مسرعة الى أسفل وترتمى عليه وتهزه ضاحكة وهى تناديه : « ياغى يا صغير » ثم تطرحه على الارض وهى تحك أنفه بحفنة من الحشائش . يكافح أوليفيه قدر ما يستطيع دون قوة تساعد على الكفاح . وهنا يكف عن الحركة ويظل مستلقيا على ظهره كالجمل وقد سمرت ذراعه النحيلتان على الحشائش بيدى أنطوانيت الصغيرتين القويتين وهو يتخذ مظهرا مؤثرا بائسا مستسلما . ولكن أنطوانيت لا تستطيع المقاومة ، وهى تنظر اليه وقد غلب على أمره وأعلن الاستسلام ، فتنفجر ضاحكة وهى تعانقة فجأة ثم تتركه بعد أن تضع فى فمه كأنها تودعه قطعة صغيرة من الحشائش الطازجة ، وقد كان يكره هذا تماما لانه يدعوه للاشمئزاز فيبصقه ويمسح فمه ويحتج ساخطا بينما تهرب هى ضاحكة وقد أطلقت ساقها للريح .

كانت أنطوانيت تضحك دائما . تضحك حتى وهى نائمة اثناء الليل ، وكان أوليفيه ينام فى الغرفة المجاورة أرقا يرتعد من القمص التى يقصها لنفسه وهو يسمع الضحكات الصاخبة والكلمات المتقطعة التى كانت تنطق بها فى صمت الليل . وفى الخارج كانت الأشجار تكاد تتكسر تحت هبوب الريح بينما البومة تنعق والكلاب تنبح فى القرى بعيدا وفى المزارع على الريح ، وكان أوليفيه يرى فى ضوء الليل الخافت ، وأطراف الخمائل أغصان الصنوبر الثقيلة المعتمة تتحرك أمام نافذته كالأشباح وكن ضحك أنطوانيت يخفف مايعتره من خوف .

كان الطفلان متدينين حقا خاصة أوليفيه ، وكان والدهما يصدما بعقائده المنافيه للدين ولكنه كان يتركها أحرارا ، فقد كان فى الحقيقة لمعظم

البورجوازيين غير المتدينين لا يغضب من اعتقاد أسرته نيابة عنه ، لأنه كان حريصا على أن يكون على صلة طيبة بالآخرين ، فالمرء ليس على يقين مطلق من تحول الحظ . وعموما فقد كان مؤمنا بالله وكان يحتفظ لنفسه بحق احضار القسيس في الوقت المناسب كما فعل أبوه ، فاذا كان ذلك لن يفيد فلا يمكن أن يلحق به ضررا . والمرء ليس في حاجة للاعتقاد بانه سيحرق حتى يتخذ الامان ضد الحريق .

كان أوليفيه السقيم يميل إلى التصرف ، وكان يخيل إليه أحيانا انه غير موجود في هذا العالم ، ولأنه كان سريع التصديق شديد الإحساس ، فقد كان في حاجة الى دعامة تسنده . كان يجد في الاعتراف لذة مشوبة بآلم ، وكان عملا طيبا بالنسبة له أن يعتمد على الله الصديق الذي يستطيع أن يسر له بكل شيء ويغفر كل شيء ، كان يتذوق حلاوة الخضوع والحب حيث تخرج روحه نقية خالصة طاهرة مستريحة وكان الايمان بالله عنده شيئا طبيعيا لدرجة أنه لم يكن يفهم كيف يستطيع إنسان أن يشك . كان يعتقد أن الإنسان الذي يشك إما أن يعتمد بشك مردول أو أن الله يعاقبه . كان يصلى لأبيه سرا ملتصقا له الرحمة حتى ينعم الله عليه بالايمان . وكم سر عندما زار كنيسة أحد الأقاليم سرا ملتصقا له الرحمة حتى ينعم الله عليه بالايمان . وكم سر عندما زار كنيسة أحد الأقاليم مع أبيه ذات يوم فرآه يرسم علامة الصليب . كانت قصص التاريخ المقدس تحتلط عنده بالقصص الساحرة لروبيزهل وجراسيوز وبرسينيه وهارون الرشيد . فعندما كان صغيرا لم يشك في صحة هذه القصص جميعا لما كان واثقا من معرفة سكاكاباك ذى الشفتين المشقوقتين والحلاق الثرثار والأحدب كاسجار ، وعندما كان يتنزه يبحث بعينه في الحقول عن كاتر البيك الأسود الذي يحمل في منقاره الجذر السحري للباحث عن الكنوز . فيبحث عن كنعان وأرض الميعاد التي

أصبحت بفضل خياله قرى مقاطعتى بورجونى والبيرى ، كان البتل المستدير والشجرة الصغيرة على قمته كأنها ريشة قديمة يبدو له كالجبل الذى أقام عليه إبراهيم الكومة ، وهى مجموعة من الأعشاب الجافة على حافة بعض الأغصان ككومة متقدة اطفأها الزمن . وحين لم يعد أوليفيه صغيرا بعد أن بدأت حاسة النقد تستيقظ عنده كان يجد لذة فى أن يترك خياله يسبح له الخرافات الشعبية التى تترين بها العقيدة الى درجة تجعله يصدقها وان لم يكن يصدقها تماما . ولهذا يترقب فى إيام السبت بلهفة عودة أجراس عيد الفصح التى خرجت إلى رومان يوم خميس العهد والتى ترجع أصداؤها فى الأجواء ومعها الأعلام الصغيرة . وتوصل أخيرا إلى إدراك عدم حقيقة ذلك . ولكنه بعد أن يستمر قليلا يتطلع إلى السماء حينما يسمع الأجراس تدق . وقد صور له الوهم أنه رأى جرسا بشرائط زرقاء يخفى فوق المنزل وإن علم أن هذا غير ممكن .

كان فى حاجة ملحة إلى أن يسبح فى ذلك العالم حيث تمتزج الخرافة بالايان ؛ ولهذا كان يهرب من الحياة ومن نفسه ، وكان يقاسى من كونه هكذا ، نحىلا ، شاحبا ، سقيما ، ولم يكن يحتمل أن يسمع الناس يقولون عنه ذلك .

كان يحمل فى دخيلة نفسه تشاؤما غريزيا يرجع أنه ورثه عن أمه ، ووجد التشاؤم أرضا خصبة فيه . ولم يكن يتبين ذلك معتقدا أن كل الناس مثله . وبدلا من أن يقضى وهو فى العاشرة أوقات راحته فى اللعب بالحديقة كل يقبع فى عرفته بعد غلقها يكتب وصيته وهو يتناول طعام بعد الظهر .

كان يكتب كثيرا ، وكان يمعن فى كتابة مذكراته كل مساء . خفية ، دون أن يدري لذلك سببا ، فلم يكن لديه مايقوله سوى التفاهات . كانت الكتابة عادة وراثية يخضع لها برجوازيو الريف الفرنسى أو الجنس العتيق

الذى لايفنى والذى يظل ثابتا فى صبر أحق يصل لها الاستبسال حتى وفاته .
وهى مذكرات مفصلة عما رأى وسمع وفعل وشرب وأكل وفيها فكر ، يكتب
لنفسه وليس لأحد ، فلن يقرأها أحد حتى هو نفسه .

كانت الموسيقى عنده كالإيمان ، ملجأً يحتتمى به مثلما يحتتمى الإنسان من
قيظ النهار . هو وأخته كانا موسيقيين بالطبيعة ، خاصة أوليفيه الذى يدين
لأمه بهذه المهوبة وإن كان ذوق الأخ والأخت فى حاجة إلى تقويم ، إلا أن
الضيعة لم يوجد بها من ينمى فيها هذا الذوق ، فالموسيقا تنحصر فى فرقة
البلدة التى تعزف ألحانا عسكرية أو منوعات لأدولف آدم ، وفى صوت
أرغن الكنيسة وهو يردد القصائد ، وفى غرف آנסات الطبقة البورجوازية
أثناء تمريناتهن على البيانو ويضربن على آلات غير دقيقة بعض المقطوعات
الفالس أو البولكا وافتتاحية خليفة بغداد أو هنرى الصغير فى الصيد واثنين
أو ثلاثا من سونات موزار ، يكررنها وبالنشاز نفسه ، ضمن برنامج ساهر
لا يتغير أبدا عند استقبال الزائرين وفى المنازل كان يطلب من المهوبين بعد
العشاء إبراز مواهبهم ، فإذا تمنعوا خجلا استجابوا فى نهاية الأمر تحت رجاء
المجموع ، فيعزفون أفضل ما لديهم ؛ ليحصلون على إعجاب الحاضرين .

وهو حفل يتكرر فى كل سهرة ، وإن كان يفسد على الصغيرين لذة
العشاء ، خاصة عندما كان يطلب منهما أن يقدموا معا بعزف مقطوعتها
«رحلة فى الصين» لبازان أو ألحان ويير القصيرة . كانت الثقة متبادلة
بينهما ؛ ولذلك لم يكن يخشيان هذه المواقف . وعندما يضطر أحدهما للعزف
بمفرده يبدأ العذاب . ومع أن انطوانييت كانت الأشجع فإن ذلك يضايقها
تماما رغم امتثالها للمأزق الذى لا مفر منه . تذهب إلى البيانو وتجلس بثقة
وتبدأ بالرونودو مسرعة تضطرب تارة ، وتارة تتوقف وتدير رأسها وهى تقول
مبتسمة :

- أوه ، لم أعد أتذكر . .

ثم تستأنف بشجاعة تاركة جزءا من المقطوعة حتى تنهيها . لم تكن تخفى سرورها لانتهائها من العزف . وعندما كانت تعود إلى مكانها وسط التهاني والمديح تضحك قائلة :

- أكثر من الأخطاء !

أما أوليفيه فكان أقل بساطة . كان لا يستطيع الظهور أمام الجمهور ولا أن يكون موضع انتباه جماعة ؛ إذ يتألم لمجرد الكلام وسط الناس ؛ لذا كانت صعوبة أن يعزف أمام أشخاص لا يحبون الموسيقى ، بل تضايقهم ، فهم يطالبون بالعزف لمجرد أنه عادة فقط ، وهو يرى في ذلك ظلما طالما حاول أن يثور عليه ودون جدوى . كان يرفض بإصرار ويهرب في بعض الليالي ، ويختبئ في غرفة مظلمة أو أحد ممرات المنزل أو حتى في حجرة المخزن رغم خوفه من العنكبوت . وكانت مقاومته تزيد من الإلحاح مع شيء من السخرية ، وكان أهله يزعرونه ويؤنبونه ويصفعونه إذا لزم الأمر عندما تصل ثورته إلى حد الوقاحة . لم يحسن العزف وهو الذي يحب الموسيقى كثيرا . ولم تكن البلدة الصغيرة في السابق على هذه الحال من الذوق الموسيقى المنحط . إذ أنهم يذكرون عهدا كانت تسمع فيه موسيقا لأبأس بها عند اثنتين أو ثلاث من الأسر البورجوازية ، وكثيرا ما كانت تتكلم السيدة جنان عن جدها الذي كان يجر بحرارة قوس الكمان الكبير ، كما كان يغنى ألحانا من جلوك وواليراك وبرتون . كان لا يزال يوجد بالمنزل دفتر موسيقا كبير ومجموعة أوراق فيها ألحان إيطالية . فكان هذا العجوز المحبوب مثل اندريو الذي وصفه برليوز فقال « كان يحب جلوك جدا » يضيف بأسف وحسرة « وكان يحب جدا بتشيني أيضا » . كان العجوز يفضل بتشيني ، وعلى أية حال فإن عدد الألحان الإيطالية كانت تفوق بكثير الألحان الأخرى في مجموعة الجد ، وقد

كانت كلها بمثابة الخبز الموسيقى لأولييفيه الصغير ، فكان غذاء غير كاف شبيها بالحلوى الرديئة التي تصنع في الأرياف والتي يشبعون منها الأطفال ، فهي تضعف الذوق وتفسد المعدة وتهدد بإفساد الشهية إلى الأبد عن تذوق الطعام الجيد . ولا يمكن اتهام أولييفيه بالشراسة ، فلم يكن يقدم له غذاء صحيح ، وكان يحرم من الخبز ويأكل الفطائر ، فأصبح سيماروزا وبيزيللو وروسيني أساتذة له هو الذى يميل إلى الكتابة والتصوف ، يسكره المشروب القوى الذى كان يقدم له بدلا من اللبن ، وهؤلاء الإساتذة الهزليون السفهاء كان تأثيرهم عليه مثل آلهة الإغريق القدماء وكذلك برجوليز وبليليني الرشيقتان من مدينتي نابل وكاتان بابتسامتهما . . ودموعها الجميلة وهى تترقق في عينيهما .

كثيرا ما كان أولييفيه يعزف على انفراد ولنفسه . فقد كان متشعبا به مستسلما للذتها دون أن يفهم معنى ما كان يعزفه . لم يفكر أحد في تلقيته دروسا في الإيقاع ، ولم يهتم هو بذلك ، فالعائلة - وخاصة الأم - كانت خالية الذهن تماما عن كل ما يتعلق بالعلوم أو بالتفكير العلمى ، فرجال القانون المحبون للفنون والآداب - وخاصة القديمة - كانوا لا يفقهون شيئا في مسألة حسابية ؛ ولذلك كانوا دائما ما يذكرون أحد أفراد العائلة - رغم صلته البعيدة - كشخص خارق للعادة ؛ لأنه عمل في مكتب الأرصاء ، وأصيب بالجنون نتيجة لهذا العمل . فالطبقة البورجوازية العتيقة في الأقاليم تتمتع بعقل قوى واقعى أصابه الخمود ؛ لطول التفكير في ذاته بحيث تسير الأيام على وتيرة واحدة ، وهى طبقة لها ثقة بالغة في عقلها ، وثقتها به تبلغ حدا يجعلها تؤمن بأنه كفيلا بحل أى مشكلة تعترىها مهما عظم شأنها .

والبورجوازية تعتقد أن رجال العلم ليسوا إلا نوعا من الفنانين ، فهم أكثر فائدة ، ولكنهم أقل شأنا . فالمعروف عن الفنانين أنهم لا يفيدون في

شئ وفي تكاسلهم شئ من الرقى ، على حين أن العلماء لا يختلفون عن العمال ، يشتعلون بأيديهم ، وهذا ما يشينهم ، هم العمال ، هم أكثر الفنانين علما ، ولكنهم مختلفون قليلا ، تظهر قوتهم ، على الورق ، ولكنهم إذا خرجوا عن نطاق أعدادهم لا يعرفون شيئا ، لا يمكنهم الوصول الى هدف أن لم يتول قيادتهم أهل الرشد ، هؤلاء يتمتعون بخبرة في الحياة وفي الأعمال .

الطامة الكبرى عدم وجود ما يؤكد أن هذه الخبرة بالحياة والأعمال تبلغ هذه المنزلة التي يتوهما أهل الرشد ، وإنما هي الأخرى خبرة ممارسة تحل عددا يسيرا جدا من الحالات البسيطة ، فإذا ما حدث ظرف خارق يستلزم الجزم في سرعة وعزم نجدهم مجردين من السلاح .

كان الصبر في جنان من هذا النوع من الرجال ، وكانت الأمور تتكرر في صورة لا تتغير داخل إطار الحياة الريفية ؛ ولذلك كان جنان على علم بما سيحدث ، فلا تقابله صعوبات حقيقية في عمله ، فقد خلف أباه في عمله كصير في دون استعداد خاص للمهنة . ولم سارت الأمور على مايرام منذ بداية عمله فقد اعتقد أن الفخر يرجع إلى مواهبه الطبيعية ، فيقول : إن المرء يكفيه أن يكون نزيها مجدا وعاقلا حتى يقوم بهذا العمل ، وكان ينوى أن يورث ابنه هذا العمل دون أن يهتم بميوله مثلما فعل والده معه ، وإن كان لا يبعد أولاده ويتركهم يفعلون ما يريدون ، شريطة أن يكونوا فضلاء وسعداء ، فهو يجهم إلى درجة العبادة ، وهكذا لم يتأهل الأولاد المرح الذي يحيطه الأصدقاء ويتمتع بمركز من أفضل مراكز البلدة ، ولهذا كانت الحياة سهلة ضاحكة .

كانت أنطوانيت في السادسة عشرة من عمرها ، وكان أوليفيه على وشك أن يتلقى المناولة الأولى (وهي سر من أسرار الكنيسة) يعيش حاملا وسط أحلامه الغامضة ، كانت انطوانيت تنصت بتلذذ إلى صوت الأمل المسكر

وهو يشدو كالبلبل في الربيع ، يملأ القلب المرحه الشابة ، فتسعد بالشعور بازدهار جسدها وروحها - كانت تعلم أنها جميلة وتستمتع عندما يذكر ذلك . وكان مديح أبيها وكلماته الجريئة كفيلة بأن تلعب بعقلها ، كان أبوها معجبا بها فرحا بتدليلها ونظراتها المتمهله في المرآة ومكرها البريء في خبث ، كان يجلسها على ركبتيه هو ويناوشها مشيرا إلى قلبها الصغير وانتصاراته في ميدان الحب ، وطلبات الزواج التي كان يدعى أنها تقدمت إليه وبعدها لها كلهم من البراجوازيين المحترمين ، كل منهم اكبر سنا وأقبح شكلا ، فكانت تصرخ باشمئزاز وتطلق ضحكاتا عالية وهي تلف ذراعيها حول عنق أبيها ووجهها فوق خده ، فكان يسألها : من سيكون المختار السعيد ؟ أهو رئيس النيابة الجمهورية الذي تقول عنه خادمة آل جنان العجوز : إنه قبيح مثل الخطايا السبع الرئيسية ، أم أنها تفضل الموثق اليدين ؟ كانت تضربه ضربات خفيفة لتسكنه أو تغلق فمه بيديها ، فكان يقبل هاتين اليدين الصغيرتين ويغنى لها وهو يؤرجحها على ركبتيه الأغنية المعروفة :

ماذا تريدن أيتها الجميلة . .

أهو زوج قبيح جدا ؟

فكانت تجيبه وه تنفجر ضاحكة بلحن متكرر في الأغنية وهي تعقد له شعره تحت ذقنه :

يكون جميلا خير من أن يكون قبيحا .

أيتها السيدة ، من فضلك .

وفي قرارة نفسها . كانت تعترم اختيار زوجها بنفسها . وكانت هلمم أنها غنية ، وأنها ستكون غنية (فأبوها كان يشرح لها ذلك بكافة الطرق) وستكون عروسا مرغوبا فيها ، وبالفعل بدأت العائلات الكبرى في البلد

والتي لها أبناء تتودد اليها منذ ذلك الحين ناصبة حولها شباكا لا يصعب على أحد فهمها ، من التملق البسيط والمكر الماهر ؛ لتتمكن من صيد هذه السمكة الفضية الجميلة ، ولكن هذه السمكة مستعدة لأن تفلت منهم بسهولة ، فانطوانيت الذكية لم يفتها شيء من حيلهم هذه ، بل كانت تتسلى بها ، لم تمنع في الزواج بشرط ألا يتعارض ذلك مع إرادتها . اذ كان قد اكتمل في مخيلتها الصغيرة الشخص الذي تريد ان تقترن به .

وفي كل بلدة من بلاد الريف الفرنسى توجد أسرة تعتبر هى الأعرق ، تدعى أنها سليلة الأشراف القدماء ولاة المقاطعة ، ولكنها تنحدر في معظم الأحيان من أحد الذين اشترى الأموال المصادرة أثناء الثورة الفرنسية ، أو أحد رجال المال في القرن الثامن عشر ، أو أحد متعهدي جيوش نابليون . وفي هذه البلدة كانت أعرق الأسر آل بونيفيه ، وقد أخذت تتقرب من آل جنان ، وكانت تمتلك على بعد فرسخين من البلدة قصرا ذا أبراج عالية مغطاه بالاردواز اللامع في شكل مدبب . وكان هذا القصر يقع وسط الخمائل الكبيرة التي تتخللها الغدران المليئة بالاسماك . ووكان بونيفيه الصغير يحاول ملاطفة أنطوانيت وهو شاب وسيم الطلعة ، قوى بدين بالنسبة لسنه ، لايعمل شيئا طوال نهاره سوى الصيد والأكل والشرب والنوم ، يركب الخيل ويلم بالرقص ، رقيق في معاملته ، في حين أن غباءه لايزيد على غباء أى شخص آخر . كان يحضر من حين الى آخر الى البلدة قادمًا من القصر وهو يرتدى الخزمات ويمتطى الجواد أو يركب عربته الصغيرة ، يزور صاحب المصرف متعللا ببعض الأعمال ، وكان أحيانا يحضر معه ثمار صيده أو باقة كبيرة من الورد يقدمها لسيدات آل جنان ، وكان ينتهز هذه الفرصة ليلاطف أنطوانيت ويتزها معا في الحديقة ، يوجه إليها المديح بأسلوب بدائي ، ويمزح بلطف وهو يقتل شاربه ويضرب أرض

الشرفة بمهازه وكانت أنطوانيت تجده جذابا ، إذ أن كبرياءها وقلبها كانا يشعران بالرضا إلى جانبه . فكانت تسلم نفسها لهذه الساعات الأولى العذبة من الحب الصباني . أما أوليفيه فكان يكره ذلك الشريف لقوته وثقله وشراسته ، ولأنه كان يضحك بصوت عال ، وأيضا لانه يمتلك يدين تضغطان على يديه ، ولأنه كان يناديه دائما بشيء من الازدراء وهو يقرض في خده قائلا « أيها الصغير » وكان يكرهه خاصة وبدون وعى ؛ لأنه يجب أخته هو ، ملكه هو ، هو فقط دون غيره .

مع ذلك كانت الكارثة في طريقها إليهم ، وفي حياة أمثال هذه العائلات البورجوازية القديمة التي تتشبث بنفس المربع من الأرض منذ أجيال وتستنفذ كل عصاراتها ، لا بد أن تقع مثل هذه الكوارث . فهذه العائلات تنام مطمئنة ، ومعتقده أنها خالدة مثل الأرض التي تحملها ، لكن الأرض تكون قد جفت تحتها ولم يعد لها جذور ، ضربة واحدة من فأس تكفى لتجتث كل شيء . وهنا يبدأ الحديث عن سوء الحظ وعن المصائب غير المنتظرة . لوكانت شجرة الأسرة أكثر مقاومة لما كان هناك سوء حظ ، أو على الأقل لمرت التجربة كريح عاصفة ، بعد أن تنتزع بعض الفروع دون أن تزعزع شجرة أبدا .

كان جنان صاحب المصرف رجلا ضعيفا كثير الثقة في نفسه ، مغرورا إلى حد ما ، وكان يطيب له - ذرا للرماد في العيون - أن يخلط متعمدا بين المظهر والواقع . يعيش الأموال بغير ترو ، ولكن الواقع أن هذا التبذير الذي أخذت عادات التدبير المتوارث تلتطف من حدته لم يكن لينقص كثيرا من ماله (فقد كان يوجد بمتر مكعب من الخشب في الوقت الذي كان ييخل فيه بعود من الثقب) إلى جانب ذلك فهو لم يكن شديد الحذر في أعماله ، فلم يكن يرفض أبدا أن يقرض أصدقاءه ، ولم يكن من الصعب على المرء أن يكون من

أصدقائه ، حتى الإيصالات لم يكن يهتم دائما بأخذها ، كان مهملا في احتساب ديونه التي لم يكن قط ليطالب بها إن لم يتقدم الدائنون بردها بأنفسهم ، وكان يعتمد على حسن نية الآخرين كما كان ينتظر من الآخرين أن يعتمدوا على حسن نيته . والواقع أنه كان أكثر خجلا مما توصى به معاملاته الصريحة البعيدة عن الكلفة . لم يكن ليجرؤ على رد بعض السائلين شديدي الإلحاح ، أو على إظهار مخاوفه من مقدرتهم على السداد . وكان تصرفاته طيبة ممزوجة بالضعف . لم يكن يريد أن يجرح أحدا وهو يخشى أن يجرحه أحد ، لذلك كان يستسلم دائما . ولكي يخدع نفسه كان يقدم ماله بحماس لمن يقبله أنه يخدمه بقبوله . وأوشك أن يقنع نفسه بأن كل ما يؤديه لا بد وأن يكون عملا طيبا .

لم تكن هذه التصرفات لتبعد عنه عطف المدينين . كان الفلاحون يجلونه وهم يعرفون أن في استطاعتهم اللجوء إليه ، وكانوا يسرفون في ذلك ، ولم يخيب جنان رجاءهم أبدا . لكن اعتراف الناس بالجميل حتى الطيبين منهم ، كالفاكهة يجب جمعها في أوانها . أما إذا تركت زمنا على الشجرة ، فلن تلبث ان تفسد . وعندما تمر بضعة شهور يكون عملاء جنان قد ألفوا التفكير في أن هذه الخدمة إنما هي واجب يؤدي لهم ، بل إنهم كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن جنان وقد أظهر هذا السرور المتناهي لمساعدتهم واجد له منفعة في ذلك ، وكان أرقهم شعورا يعتبرون أنفسهم قد تخلصوا إن لم يكن من الديون فعلى الأقل من الوفاء بالجميل ، لو أهدوا صاحب المصرف يوم سوق البلد أرنبا بريا اصطادوه أو سلة من بيض دجاجهم .

الفصل الثاني



لم يكن جنان قد تعامل حتى الآن إلا بأموال صغيرة مع أناس شرفاء ، فلم يكن هناك خطر يذكر ، كانت الخسائر طفيفة لم ييح بها لأحد ، لكن الأمر تغير عندما وجد جنان نفسه أمام محتمل يزعم القيام بمشروع صناعى ضخيم ، وكان على دراية بتساهل صاحب المصرف وموارده المالية . هذا الشخص الذى يتظاهر بالعظمة ويتحلى بوسام جوقة الشرف ، ويدعى صداقة لاثنين أو ثلاثة من الوزراء ، ولأحد المطازنة ، وللمجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ ، وشخصيات مختلفة من مشاهير رجال المال والأدب ، وصداقة إحدى الصحف القوية النفوذ . ذلك الرجل كان يتصرف بمهارة فائقة تتفق وطباع جنان . وكان الأسلوب الذى اتبعه معه صارما ووديا فى الوقت نفسه . ولكى يقوى مركزه عرض على جنان رسائل من المديح العادى تلقاها من بعض معارفه من العظماء يشكرونه فيها على دعوة لعشاء أو يدعونه بدورهم . كان يعرض تلك الرسائل بطريقة غليظة يمكن أن تثير من يكون أكثر رقة من جنان ، والمعروف عن الفرنسيين أنهم لايقترن فى عملة الرسائل هذه ، وأنهم يتقبلون بسهولة مصافحة الأيدى ، ودعوات أشخاص لم يمض على معرفتهم بهم أكثر من ساعة ، بشرط ألا يطلبوا شيئا من ما لهم . ثم أنهم قد لايبخلون بما لهم نحو الصديق الجديد إذا سبقهم إلى ذلك آخرون ، والرجل اللبيب الذى يحاول جن يريح جاره من ضائقته المالية سيكون سىء الحظ إذا لم ينته بايجاد الشخص الذى يقبل أن يكون أول من يبدأ لينساق وراءه القطيع ،

وحتى إذا لم يكن ثمة قطع قبل جنان فقد كان هو نفسه على استعداد لأن يبدأ بالتضحية . لقد كان جنان من ذلك النوع الجيد من الأغنام غزيرة الصوف التي خلقت لتجز . وخدعه هذا الرجل بهاله من علاقات طيبة ، وبفصاحته ومداهنته ، كما خدعته نصائحه بما أتت من نتائج جيدة في بادىء الأمر، مما جعله يخاطر وينجح ثم خاطر بالكثير ثم بكل ماله ، ليس بما له فحسب ولكن بما لعملائه أيضا ، وكان يرفض ان يخبرهم بذلك لتأكيد من الريح ، وكان يريد أن يبهرهم بخدماته .

وإذا بالمشروع يفشل . علم ذلك عن طريق غير مباشر من أحد مراسليه الباريسيين الذى قال كلمة عابرة عن الإفلاس الأخير ، وهو لا يدري أن جنان كان من بين الضحايا ، لأن صاحب المصرف لم يكن قد باح لأحد بشيء . وكان قد أهمل أو تجنب طلب النصيحة عند القادرين على إرشاده ، عمل كل شيء سرا ، معجبا بحسن إدراكه الذى ظنه معصوما من الخطأ ، مكتفيا بمعلومات غامضة عن الموضوع . والحياة فيها مثل هذه الاخطاء الجسيمة ، ففي بعض الأحيان يدفع الإنسان بنفسه الى الهلاك المحتوم ، ويبدو أنه يخاف من مساعدة الغير له ، فهو يهرب من كل نصيحة يمكن أن تنقذه فيختبئ ويسرع في لهفة ؛ ليلقى بنفسه في الفراغ باختياره .

أسرع جنان إلى المحطة ليركب القطار إلى باريس وقلبه ملىء بالحسرة . لقد ذهب للبحث عن صاحبه ، صاحب المشروع الضخم ، كان ما يزال يخدع نفسه أملا في أن تكون الاخبار كاذبة ، أو على الأقل مبالغ فيها . لم يجد صاحبه ، فتأكد من الخراب . عاد محموما ولكنه يكتم كل شيء . لم يكن الشك حتى تلك اللحظة قد تطرق إلى الذهن ، فحاول جنان أن يكسب بضعة أسابيع أو أيام يقنع نفسه بتفاؤله أنه باستطاعته إيجاد حل لتعويض خسائره ، أو على الأقل خسائر عملائه . محاولات عديدة باندفاع

أحرق من شأنه ان ينتزع منه كل فرصة في النجاة ، ودفعه اليأس إلى مضاربات خطيرة جازف فيها بالقليل الذي تبقى له ، وكانت سببا في ضياعه النهائي . ومنذ ذلك الحين تغيرت طباعه تغيرا كاملا . كان لا يتكلم عن أى شىء ، ولكنه بدا محتدا عنيفا قاسيا حزينا حزنا مخيفا . ومع ذلك ظل يتظاهر بالبشاشة مع الغرباء ، ولكن اضطرابه لم يخف على أحد . كانوا يرجعون ذلك إلى سوء صحته . أما مع أفراد عائلته فكان أقل مراقبة لنفسه ، كانوا قد لاحظوا أنه يخفى شيئا خطيرا ، وأنه تغير تماما ، فأحيانا كان يهجم على إحدى الغرف ليفتش دولابا ما ويبعثر الأوراق على الأرض ، ثم ينفجر في ثورة من الغضب ، عندما لا يجد ما يريد أو عندما يتقدم أحد لمساعدته ، يظل غارقا في هذه الفوضى ، فاذا سألوه عما يريد ، كان لا يدري . وبدا لا يهتم بأفراد أسرته ، كان يقبلهم والدموع في عينيه وأصبح لا ينام ولا يأكل .

شعرت زوجته أن كارثة ما على وشك الوقوع ، ولكنها لم تتعود أبدا أن تشارك زوجها في أعماله . كانت لاتفهم فيها شيئا ، ومع ذلك سألته عن الأمر فنهرا بشدة فلم تعاود ، بعد أن جرح شعورها ، كانت ترتعد دون أن تدري السبب .

لم يستطع الأولاد أن يدركوا الخطر . أنطوانيت كانت من الذكاء بحيث أحست - مثل أمها وأخيها - بكارثة تقترب ، ولكن حبها الوليد كان قد ملك عليها كل تفكيرها ، لم تكن تريد أن تفكر فيما يقلقها ، كانت تقنع نفسها بأن الغيوم لم تلبث أن تزول ، أو أنه من الممكن وجود متسع من الوقت لمواجهتها حتميا .

ربما كان اوليفيه الصغير أقرب إلى فهم ما يدور في نفس صاحب المصرف المسكين . كان يشعر أن أباه يتألم . وكان يتألم معه سرا . ولكنه لم يجرؤ على أن يقول شيئا . كان عديم الحيلة ولم يكن يعرف شيئا ، وكان يبعد تفكيره

عن هذه الاشياء المقبضة التي تخرج عن دائرة تفكيره . وكان مثل أمه وأخته يميل إلى الاعتقاد بأن النكبات التي لايريدها أن تحدث قد لا تحدث . إن الضعفاء عندما يشعرون بالخطر يفعلون كالنعامة ، يجثون رءوسهم خلف حجر متخيلين أن النكبة لا تراهم .

بدأت الإشاعات المزعجة تنتشر . قيل : إن الثقة بالمصرف بدأت تتزعزع . وعبثا حاول صاحب المصرف ان يصطنع الثبات أمام عملائه ، بعد أن شك بعضهم في الأمر وطالبوا باسترداد أموالهم ، شعر جنان بأنه ضائع للاحالة ، وأخذ يدافع دفاع اليائس متظاهراً بالغضب ، آخذاً على الناس بكبرياء ومرارة شكهم في أمره . وبلغ به الأمر أن احتد على بعض عملائه القدامى ، مما أفقده ثقة الناس نهائيا . وتدفقت المطالبات بالسداد على المصرف ، ووجد جنان نفسه أمام الأمر الواقع ، بعد أن ضيق عليه عملاؤه ، ففقد صوابه . قام برحلة قصيرة إلى إحدى المدن القريبة الشهيرة بمياهها المعدنية حيث قامر في أحد الكازينوهات بكل ماتبقى معه من مال ، وأضاع كل شيء في ريع ساعة ثم عاد .

كان رحيله المفاجيء قد قلب المدينة الصغيرة ، فسرعان ما قيل : أنه هرب ، ووجدت زوجته صعوبة كبيرة في مقاومة قلق الناس العنيف ، توسلت إليهم أن يصبروا ، وأقسمت لهم أن زوجها سيعود ، ولكنهم لم يصدقوا ، بالرغم من أنهم كانوا يريدون أن يصدقوا ؛ لذلك كانت عودته عندما علموا بها سلوى للجميع . لم يكن بعيدا على التفكير الكثيرين أن قلقهم كان في غير محله وأن أسرة جنان كانت من الدهاء بحيث تستطيع أن تتخلص دائما من العثرات لو وقعت ، وكان مسلك صاحب المصرف يؤيد ذلك الشعور . وبعد أن تأكد مما يجب عليه أن يفعله بدا متعبا ولكن هادئا . وعندما نزل من القطار وسار في طريقه قابل بعض الأصدقاء وأخذ يتحدث

إليهم باطمئنان . حدثهم عن الريف الذى نضبت مياهه منذ أسابيع ، وعن الكروم الجميلة ، وعن سقوط الوزارة التى أعلنتها صحف المساء .

ولما وصل إلى المنزل تظاهر بعدم الاكتراث لاضطراب زوجته التى أسرعته نحوه ؛ لتقصى عليه فى لهفة واضطراب ما حدث أثناء غيابه . حاولت أن تقرأ على وجهه إذا كان قد استطاع أن يدفع الخطر المجهول ، ومع ذلك لم يسمح لها بكبرياؤها أن تسأله عن أى شىء . كانت تنتظر أن يبدأ هو الحديث ، ولكنه لم ينطلق بكلمة واحدة بما كان يشغل بالها ، أزاح بصمت ورفق رغبتها فى أن تتوحد إليه لتدفعه إلى أن يبوح بأسراره ، تحدث عن حرارة الجو وعن تعبته ، وشكا من ألم شديد فى رأسه ، ثم جلسوا جميعا حول المائدة كما هى العادة ، كان قليل الكلام ، متعبا شارد الذهن ، مقطب الجبين ، ينقر على المائدة بأصابعه . حاول جهده أن يأكل وهو يعلم أن الكل يراقبه . أخذ ينظر النظرات الزائغة نحو أولاده الخائفين مع السكون ، ونحو زوجته المتمسكة بكبرياتها والتى كانت تراقب حركاته دون أن تنظر إليه .

وقبل أن ينتهى العشاء بدا أنه استيقظ ، فأخذ يتحدث إلى انطوانيت وأوليفيه سألها عما فعلاه أثناء رحلته ، ولكنه لم يسمع إجابة ، لم يسمع إلا صدى صوتيهما ، وبالرغم من أن عينيه كانتا مثبتتين عليهما فإن نظراته كانت زائغة . شعر أوليفيه بذلك فتوقف عن حكاياته ولم تعد لديه الرغبة فى مواصلة الحديث ، أما أنطوانيت فقد بدأت تبتهج بعد ضيق وأخذت تتحدث ، كعصفور مرح واضعه يدها فوق يد أبيها أو ممسكة ذراعه ؛ لتجعله ينصت جيدا لما تقصه عليه ، لم يتكلم جنان ، أخذت نظراته تنتقل بين أنطوانيت وأوليفيه وجبينه يزداد تقطيا وبينما كانت أنطوانيت مسترسلة ، لم يستطع هو أن يخفى ما فى نفسه ، ترك المائدة . أرسلتهم أمهم ليلعبوا فى

الحديقة ، ومالبثوا حتى سمعت صيحاتهم الرفيعة وهم يتتابعون في الممرات ونظرت مدام جنان إلى زوجها الذى أدار لها ظهره ، ودارت حول المائدة متظاهرة بأنها تريد شيئاً ما ، وفجأة اقتربت منه وقالت له بصوت يخنقه الاضطراب والخوف من أن يسمعها الخدم :

- أخيراً أنطوان ، ماذا بك ؟ إن بك شيئاً ! نعم ، أنت تخفى شيئاً ! هل حدث مكروه ؟ هل أنت مريض ؟

ولكن جنان ، هز كتفيه علامة على نفاذ صبره ، وأبعدها عنه مرة أخرى قائلاً بلهجة قاسية .

- لا ، أقول لك لا ! دعيني !

وابتعدت عنه وهى غاضبة تقول لنفسها أثناء غضبه الأحمق إنها لن تكثر بعد الآن مهما حدث لزوجها .

ونزل جنان إلى الحديقة . كانت أنطوانيت ماتزال تواصل مجونها وتضايق أخواها لتجعله يجرى أمامها . ولكن أخواها أعلن فجأة أنه لم يعد يريد أن يلعب واعتمد بمرفقه على حائط الشرفة على بعد خطوات من أبيه . حاولت أنطوانيت مرة أخرى مشاكسته ، لكنه أبعدها متجهها ، فألقت إليه بعبارات لإغاضته ، ولم يكن هناك أى مجال للعب فى الحديقة ، ودخلت المنزل وجلست إلى البيانو .

ظل جنان وأوليفيه وحدهما .

وسأل جنان ابنه بهدوء .

- ماذا بك يا صغيرى ؟ لماذا لم تعد تريد أن تلعب ؟

- إننى متعب يا أبى .

- حسنا ، إذن دعنا نجلس قليلا على هذا المقعد .

جلسا . كانت ليلة جميلة من ليالى سبتمبر : السماء صافية ، ورائحة البتونيا المعطرة تمتزج بالرائحة المتعطرة الكريهة التى تخرج من القناة الراكدة تحت حائط الشرفة ، كانت فراشات المساء الكبيرة الشقراء ترفرف بأجنحتها حول الأزهار محدثة صوتا يشبه صوت المغازل الصغيرة وعلى الضفة الأخرى للقناة صدى أصوات الجالسين أمام أبواب بيوتهم يرن فى السكون ، وفى داخل المنزل كانت أنطوانيت تعزف على البيانو مقطوعات إيطالية خفيفة وذات أنغام مرحة . أما جنان فقد وضع يد أوليفيه فى يده ، كان يدخن وكان أوليفيه يرى فى الظلام الذى أخذ يخفى تقاطيع وجه أبيه ضوء الغليون الخافت . كان الغليون يشتعل ثم ينطفئ ثم يسود فيشتعل وينتهى بأن ينطفئ نهائيا كانا لا يتحدثان . سأل أوليفيه عن أسماء بعض النجوم ، وكان أبوه مثل معظم البورجوازيين فى الريف جاهلا بالطبيعات ولا يعرف اسم أى نجم ؟ اللهم إلا الأبراج الكبيرة التى لا يجهد أسماءها أحد . ولكنه تظاهر بأن ابنه يسأل عن هذه الأبراج فساها له . ولم يعارض أوليفيه فكان يجد لذة فى الاستماع إلى تلك الاسماء الغريبة ليردها بصوت خافت ، ومع ذلك فقد كانت رغبته فى المعرفة أقل من ميله الطبيعى فى التقرب من أبيه . سكت الاثنان وكان أوليفيه يتأمل النجوم فاغرافاه ، مسندا رأسه على ظهر المقعد . وشعر بالخمول عندما سرى إليه الدفء من يد أبيه وفجأة بدت هذه اليد ترتعش ، وعجب أوليفيه لذلك وقال بصوت ضاحك يثقله النعاس :

- آه ! إن يدك ترتعش يا أبى !

فسحب الأب يده .

ولم تكف رأس أوليفيه الصغيرة عن التفكير ، وقال بعد لحظة :

- هل أنت متعب أيضا يا أبى ؟

- نعم يا صغيرى .

وعاد الابن يقول بصوت ملء بالعاطفة :

- يجب ألا تتعب نفسك إلى هذا الحد يا أبى .

وجذب جنان رأس ابنه نحوه وأسندها على صدره وهو يغمغم :

- يا صغيرى المسكين !

ولكن أفكار أوليفيه كانت قد اتخذت لها اتجاهها آخر ، ودقت ساعة

البرج ثمانى دقائق ، فتخلص الولد من أبيه وهو يقول :

- أنا ذاهب لأقرأ .

كان يسمح لأوليفيه أيام الخميس بالقراءة لمدة ساعة بعد العشاء حتى

يحين موعد النوم . كان ذلك منتهى السعادة بالنسبة إليه ، ولم يكن فى الدنيا

شئ يستطيع أن يجعله يضحى بدقيقة من ذلك الوقت .

تركه أبوه يذهب . وأخذ يذرع الشرفة المظلمة جيئة وذهابا ثم دخل المنزل

وهو الآخر .

وفى الغرفة كانت الأم والأولاد مجتمعين حول المصباح ، أنطوانيت تضع

شريطا لرواد دون أن تكف لحظة عن الكلام أو الغناء ، بالرغم من تأفف

أوليفيه الذى جلس إلى مكتبه وقد قطب حاجبيه مائلا على المائدة وهو يضع

يديه على أذنيه حتى لا يسمع شيئا . وكانت مدام جنان ترفو بعض الجوارب

وهى تتحدث إلى الخادم العجوز التى وقفت إلى جانبها تقدم حسابا عن

مصرفات اليوم ، وانتهزت تلك الفرصة لتتحدث قليلا . وكانت لديها

حكايات دائها تحكيها بطريقة مسلية مثيرة تجعلهم جميعا يتفرجون ضاحكين ، فتحاول انطوانيت أن تقلدها .

نظرا إليهم جنان صامتا ، ولم يلتفت إليه أحد . وقف حائرا فترة ثم جلس وأخذ كتابا فتحه ثم أغلقه وقام من مكانه ؛ إذ لم يكن في إمكانه البقاء أكثر من ذلك ، أشعل شمعة وقال :

- مساء سعيد .

اقترب من الصغيرين وعانقهما بحرارة . وردا عليه بالتحية دون انتباه ودون النظر إليه . أنطوانيت كانت منهمكة في أشغالها وأوليفيه كان مأخوذا بكتابه ، ولم يبعد يديه عن أذنيه ، ولكنه رد على التحية بغمغمة وهو يواصل القراءة ، ولم يكن يهتم عندما ينهمك في القراءة أن يقع أفراد أسرته في نار الموقد . خرج جنان من الغرفة وأخذ يتلأأ في الغرفة المجاورة . جاءت زوجته بعد قليل لتضع بعض البياضات في أحد الدواليب ، إذ كانت الخادمة قد انصرفت وتظاهرت أنها لم تره . وتردد هو ثم اقترب منها وقال :

- أرجو المَعذرة ، لقد تحدثت إليك بخشونة منذ قليل .

وودت لو قالت له :

- لست متعاملة عليك يا زوجي المسكين ، ولكن ماذا بك ؟ قل لي إذن ماذا يجعلك تتألم ؟

ولكنها قالت له وهي سعيدة ، إذ وجدت الفرصة لتثار لنفسها :

- دعني وشأني إنك فظ غليظ معي ، تعاملني بطريقة لاتعامل بها خادمة ..

وبهذه اللهجة ظلت تعدد له شكواها بإسهاب عنيف ملء بالحقد .

قابل كل ذلك بحركة مليئة بالضيق ، ولكنه ابتسم ابتسامة مريرة ثم انصرف .

لم يسمع أحد صوت الرصاصه . ولكن الجيران تذكروا في اليوم التالي عندما علموا بما حدث أنهم سمعوا عند منتصف الليل تقريبا وفي صمت الطريق صوتا جافا كأنه ضربة سوط ، فلم يهتموا به . ولم يلبث هدوء الليل أن عاد ، فغمر المدينة وطوى في ثناياه الأحياء والموتى .

استيقظت مدام جنان بعد ساعة أو ساعتين ، ولم تجد زوجها إلى جانب ، قامت قلقة تجوب الغرف ، ثم نزلت إلى الدور السفلى واتجهت إلى مكاتب المصرف التي كانت في جزء من مبنى مجاور للمنزل ، وهناك في غرفة جنان وجدت زوجها على الأريكة منهارا على مكتبه وسط دمائه التي كانت ماتزال تقطر على الأرض ، وصرخت صرخة عالية ، وسقطت من يدها الشمعة التي كانت تحملها وأغمى عليها ، وسمعها من كان في المنزل فهرع الخدم ليحملوها ويعنوا بها ، ثم حملوا جثة جنان ووضعوها على فراش . كانت غرفة الصغيرين مغلقة أنطوانيت نائمة . سمع أوليفيه أصواتا ووقع أقدام ، كان يود لو يعرف ما الخبر ، ولكنه خشى أن يوقظ أخته فعاود النوم .

في صباح اليوم التالي كان الخبر قد انتشر في المدينة قبل أن يعرف الصغيران أى شيء ، وأخبرتتهما الخادم العجوز بالخبر وهى تتحجب ، كانت أمهما خارج وعيها لا تستطيع التفكير في أى شيء ، وكانت صحتها في حالة تبعث على القلق . وجد الصغيران نفسيهما وحيدين أمام الموت وقد تغلب رعبهما في اللحظات الأولى على ألمهما . بعدها لم تترك لهما فرصة البكاء بعيدا عن الناس ، إذ بدأت منذ الصباح الإجراءات القضائية القاسية ، كانت أنانية الصبا تدفع أنطوانيت وقد اعتكفت في غرفتها إلى بذل قصارى جهدها

حتى لاتفكر في شيء آخر غير صديقها . كانت تلك هي وسيلتها الوحيدة التي تساعدها على طرد الألم الفظيع الذي كان يخنقها ، وانتظرت قدومه من ساعة لأخرى ، ولم يحدث أن تلتطف صديقها معها مرة مثلما حدث في المرة الأخيرة التي رآته فيها . لم تكن تشك في أن يسرع لمشاركتها في حزنها ، ولكن أحدا لم يأت . ولم يكتب إليها أحد كلمة واحدة ، دليلاً على أى تعاطف ، بل العكس ، فبمجرد إذاعة الخبر أسرع كثير من الذين أودعوا أموالهم إلى مصرف جنان ومنزله ، واخترقوا الباب ثائرين على الزوجة والصغيرين بوحشية لارحمة فيها .

وفي خلال بضعة أيام تكدست المصائب عليهم : فقد إنسان عزيز، إضاعة الثروة كلها ، ضياع مركز العائلة وتقدير الناس لهم ، وتحلى الأصدقاء عنهم ، والانهيار التام ، فلم يعد يوجد ما يقيم أودهم . كانت لهم نفوس طاهرة أبية جعلتهم يعانون من فضيحة هم أبرياء منها . قاست أنطوانيت أكثر من أمها وأخيها ، لأنها كانت أبعدهم عن المصيبة .

وبالرغم مما أصاب مدام جنان وأوليفيه لم تكن دنيا الأسى هذه بغريبة عليهم ، كانوا متشائمين بطبيعتهم ؛ لذلك لم تفاجئهم المصيبة بقدر ما ألتهم .

كانوا يفكرون كثيرا في الموت هربا من الحياة ، وتسלט عليهم ذلك التفكير أكثر من أى وقت مضى ، فأخذوا يتمنون الموت ، إنه خضوع مؤسف من غير شك ، ومع ذلك فهو أقل هولا من ثورة أنطوانيت تلك الفتاة الصغيرة الممتلئة ثقة ، السعيدة التي تحب الحياة ، وقد وجدت نفسها فجأة مقهورة أمام يأس لاحوله ، وأمام هذا الموت المفزع .

وفجأة اكتشفت أنطوانيت بشاعة الحياة ، تفتحت عينها فرأت الحياة على حقيقتها ، وعرفت أباه وأمها وأخاها ، وبيننا أوليفيه وأمه بيكيان كانت هى منفردة مع حزننا ، وأخذت تفكر بعقلها اليأس فى الماضى والحاضر والمستقبل ، رأت أن كل شىء قد انتهى بالنسبة إليها لم يعد لها أمل أو سند ، لم يعد لها أحد تعتمد عليه .

شيعت الجنازة بطريقة مفعجة مخزية ، كانت الكنيسة قد رفضت استلام جثة المتحر . أما الأصدقاء القدامى فكانوا من الجبن بحيث تركوا الأرملة وولديها اليتامى وحدهم ، صديقان أو ثلاثة فقط هم الذين ظهروا لبضع لحظات ، وكانت حالة الضجر التى يبدو بها أشق على نفوسهم من غياب الآخرين . كأننا كان حضورهم مكرومة يقدمونها ، كان صمتهم مثقلا بالعتاب وبالشفقة المهينة . ومن جهة أقاربهم فقد كان الأمر أسوأ من ذلك ، لا لأنهم لم يواسوهم بكلمة واحدة ، ولكن لأنهم أخذوا يلقونهم باللوم المرير . وبدا انتحار صاحب المصرف الذى لم يستطع أن يطفىء الأحقاد جريمة لاتقل بشاعة عن جريمة إفلاسه ، إن البورجوازية لا تغتفر للذين يقتلون أنفسهم ، وتفضيل الموت على الحياة مهما بلغت من الدناءة يبدو فى نظرها أمراً فظيماً ولو استطاعت لاستعانت بقوة القانون على من يبرر انتحاره بقوله :

- ليس هناك شقاء أكبر من الحياة بينكم !

ولم يكن أجنبهم أقل تلهفاً على وصم المتحر بالجن . فتورتهم تشدد عندما يجدون أن المتحر - فضلاً عن انتحاره- قد أخذ بمصالحهم وحرمهم من الانتقام لأنفسهم بانسحابه من الحياة . لم يفكروا لحظة واحدة كم قاسى جنان المسكين قبل أن يلجأ إلى الموت . وتمنوا لو تعذب ألف مرة أكثر مما تعذب .

ولما وجدوا أنه أفلت منهم اتجهوا بسخطهم نحو ذويه ، لم يعترفوا بذلك لأنفسهم ؛ لأنهم يعرفون مافيه من ظلم ، ومع ذلك فما كانوا يمتنعون عن ظلمهم ؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى ضحية .

كانت مدام جنان التى لم تعد تصلح إلا للعويل ، تستعيد قوتها عندما يهاجم زوجها أحد . وحينئذ تكتشف مبلغ حبها له . واتفق الثلاثة الذين كانوا يجهلون مايجبئهم لهم الغد عن مهر الأم وعن كل مايملكون ؛ ليسدوا بقدر مايستطيعون ديون الأب ، ثم أصبحوا لا يستطيعون البقاء أكثر من ذلك فى المدينة ، فقرروا الذهاب إلى باريس .

فى أمسية أخيرة من شهر سبتمبر ، والحقول تختفى وراء الضباب الكثيف الأبيض الذى تطل منه على جانبى الطريق هياكل الأعشاب المبتلة وكأنها نباتات مائية ، فى تلك الأمسية التى سبقت الرحيل ذهبوا معا لوداع مقابر الأسرة وركع الثلاثة على الحافة الحجرية المحيطة بالقبر الذى لم يمض على ردمه وقت طويل . سألت دموعهم فى صمت ، وأخذ صوت أوليفيه يتحشرج وأخذت السيدة جنان تجفف دموعها فى يأس ، كانت تتعذب وتزيد من شقائها بترديد مستمر للكلمات التى قالها لزوجها فى آخر حديث معه قبل انتحاره . وتذكر أوليفيه حديثه مع أبيه وهما جالسان فى شرفة الحديقة ، فيما كانت أنطوانيت تفكر فيما سيحدث لهم بعد ذلك ، ولم يكن فى قلب واحد منهم ظل فى اللوم للشقى الذى أضاعهم جميعا معه . ولكن أنطوانيت أخذت تفكر .

- آه كم سنقاسى ياأبى العزيز !

وبدأ الضباب يتكاثف والرطوبة تنفذ إليهم ، ولكن السيدة جنان لم تستطع أن تغادر المكان . ورأت أنطوانيت أخاها يرتعش ، فقالت لأمها :

-أمى ، أشعر بالبرد .

وقاموا من مكانهم ، وقبل أن يغادروا المكان استدارت السيدة جنان للمرة الأخيرة نحو القبر لتقول :

- يا صديقى المسكين .

خرجوا من المقابر والليل يرخى سدوله وأنطوانيت ممسكة بيد أخيها الباردة ، ودخلوا المنزل القديم . كانت آخر لياليهم في العش الذى كانوا ينامون فيه دائما ، حيث انقضت حياتهم وحياة أسرهم ، هذه الجدران ، هذا المأوى ، هذا المربع الصغير من الأرض الذى ارتبطت به مسرات العائلة وأحزانها برباط من الشدة بحيث بدت هذه الأشياء كأنها هى أيضا من أفراد العائلة ، وكأنها جزء من حياتهم لا يستطيع أن يفرق بينها وبينهم إلا الموت .

كانت الحقائق جاهزة ، وكان عليهم أن يأخذوا أول قطار في اليوم التالى قبل أن تفتح الحوانيت المجاورة أبوابها ؛ لكى يتجنبوا فضول الناس وتعليقاتهم المريرة . كانوا فى حاجة إلى أن يضم بعضهم بعضا ، ومع هذا اتجه كل واحد بطريقة لا إرادية إلى غرفته حيث مكث مدة طويلة . ظلوا وقوفا ، لا يتحركون ولا يفكرون حتى فى خلع القبعات والمعاطف . وأخذوا يتحسسون الجدران وقطع الأثاث وكل ما كانوا على وشك أن يتركوه ، ويضعون جباههم على زجاج النوافذ ، محاولين أن يحتفظوا فى أنفسهم بتجاوبهم مع الأشياء الحبيبة إليهم . وأخيرا بذل كل منهم جهده ؛ ليتنزع نفسه من انفراده بأفكاره الحزينة واحتمعوا فى غرفة السيدة جنان ، غرفة العائلة ذاتها الكبيرة حيث كانوا يجتمعون كل مساء بعد العشاء ، عندما لا يكون فى زيارتهم أحد . ذلك الماضى أصبح بعيدا ، وظلوا صامتين حول نار الموقد الخافتة ، وأدوا الصلاة معا وهم راکعون أمام السرير ، وناموا

مبكرين ؛ فقد كان عليهم أن يستيقظوا قبل الفجر ، ولكن وقتا طويلا مضى قبل أن يخلدوا إلى النوم .

كانت السيدة جنان تنظر طوال الليل إلى ساعتها لعل الوقت حان . وفي الرابعة صباحا قامت وأشعلت شمعة . وسمعتها أنطوانيت التي لم تنم ، وقامت هي الأخرى ، أما أوليفيه فكان غارقا في نوم عميق ، ونظرت إليه السيدة جنان بحنان ، ولم تجرؤ على إيقاظه ، وابتعدت على أطراف أصابعها وهي تقول لأنطوانيت :

- يجب ألا تحدثي صوتا لينعم الصغير المسكين بآخر لحظاته هنا . وانتهت الاثنتان من ارتداء ملابسها ومن تجهيز اللفائف . وحول المنزل كان يخيم صمت الليل البارد المخيف حيث أغرقت كل الأحياء ، الإنسان منها والحيوان ، في النوم الدافئ ، كانت أسنان أنطوانيت تصطك من البرد ، وكان جسدها وقلبها قد تجمدا .

ودوى صوت الباب الخارجى في الهواء المتجمد . كانت الخادم العجوز ومعها المفتاح الخاص بالمنزل قد جاءت لتقوم بخدمة العائلة للمرة الأخيرة . كانت قصيرة بدينة ، تضايقها بدانتها وتجعلها تتنفس بصعوبة ، ومع ذلك فهي تبدو خفيفة في حركتها بالنسبة لسنها ، وتقدمت بوجه تبدو عليه الطيبة وحوله شال من الصوف ، كان أنفها أحمر من البرد ، وعيناها تترقرقان بالدموع . وأسفت إذ رأت سيدتها وقد قامت من نومها دون أن تنتظرها وأشعلت فرن المطبخ ، واستيقظ أولفيه أثناء دخولها ، أول حركة بدرت منه أنه عاد فأغلق عينيه ، ولف نفسه في الأغطية ليواصل النوم . وجاءت أنطوانيت لتضع يدها برفق على كتف أخيها وهي تناديه بصوت خافت :

- أوليفيه ، حان الوقت يا صغيرى .

تنهد وفتح عينيه فرأى وجه أخته قريبا من وجهه . ابتسمت له ابتسامة حزينة ، ومسحت يدها على جبينه ، وقالت له مرة أخرى :

- هيا بنا .

قام أوليفيه .

خرجوا من المنزل كاللصوص دون أن يحدثوا ضوضاء ، كل واحد منهم يحمل لفائف بين يديه تتقدمهم الخادمة العجوز وهى تدفع حقائبهم أمامها على عربة صغيرة . تركوا كل شىء تقريبا . لم يأخذوا إلا ماتحملة أجسامهم وبعض الملابس حتى تشحن فى المستقبل بعض الأشياء التذكارية البسيطة ، كالكتب والصور ، وتلك الساعة القديمة التى اختلطت دقائقها بدقات قلوبهم . كان الهواء لاذعا فى برودته ولم يكن أحد قد استيقظ فى المدينة : النوافذ مغلقة ، والشوارع مقفرة . ساروا صامتين فيما عدا الخادمة التى أخذت تتحدث وحدها .

حاولت السيدة جنان أن تثبت فى مخيلتها معالم المدينة التى تذكرها بكل ماضيها ، ولم تستطع فى المحطة أن تتغلب على عزة نفسها ، فاشترت تذاكر السفر بالدرجة الثانية ، بالرغم من قرارها السابق بالاكفاء بالدرجة الثالثة ، ولكنها لم تجرؤ على قبول هذا الذل أمام اثنين أو ثلاثة من موظفى السكك الحديدية الذين يعرفونها . تسللت بسرعة إلى مقصورة خالية حبست نفسها فيها مع الصغار ، كانوا يرتعدون وهم خلف الستائر؛ خشية ظهور أحد المعارف ، ولكن أحدا لم يظهر . كانت المدينة قد بدأت تستيقظ ساعة رحيلهم ، وكان القطار خاليا إلا من ثلاثة أو أربعة من القرويين ومن بعض الثيران التى أطلت برءوسها فوق حاجز العربة ، وأخذت تخور خوارا حزينا ، وبعد طول انتظار صفر القطار صغيرا متصلا ، ثم اندفع فى الضباب ، أزاح

المهاجرون الثلاثة الستائر ، والتصقت وجوههم بزجاج النوافذ ؛ ليروا مدينتهم الصغيرة للمرة الأخيرة والتي كاد برجها العتيق ذو الطراز القوطى يخفى خلف غلالات الضباب . كانت الربوة مغطاة بالقش ، والمراعى يكسوها الجليد الأبيض يتصاعد منه الدخان ، وكأنها كان المنظر حلما بعيدا لاجوده . اختفى المنظر عندما انحنى القطار ليخترق جبلا . اطمأنوا إلى أن أحدا لم يعد يراهم ، فلم يتما الكوا شعورهم ، وضعت السيدة جنان منديلها على فمها وأجهشت فى البكاء ، وارتمى أوليفيه على أمه تاركا رأسه على ركبتيها ، وأخذ يغمر يديها بالعبرات والقبل . أما أنطوانيت فأخذت تبكى فى صمت وهى جالسة فى الركن الآخر من المقصورة متجهة نحو النافذة ، ولم يكن بكاء الثلاثة للسبب نفسه . فالسيدة جنان وأوليفيه لم يفكرا إلا فيما تركا وراءهما ، أما أنطوانيت فكل تفكيرها اتجه نحو ماسيحدث لهم بعد ذلك ، كانت تلوم نفسها على هذا التفكير ، وتتمنى لو استطاعت ألا تخرج عن نطاق الذكريات ، كانت محقة فى النظر إلى المستقبل ؛ إذ كانت أكثر إمعانا فى الأمور من أمها وأخيها اللذين أخذوا يعقدان الآمال البعيدة على باريس . ولم يكن يدور بخلد أنطوانيت نفسها شىء مما ينتظرهم هنالك فى باريس ، التى لم يزوروا من قبل ، حيث للسيدة جنان أخت متزوجة من أحد القضاة الأثرياء وتعقد عليها كثيرا من الأمل .

كانت مقتنعة بأن ولديها لن يجدا صعوبة كبيرة فى كسب عيشهما بطريقة شريفة بما كسباه من تعليم ، وبما لديها من استعداد فطرى ، وكانت - ككل الأمهات - مخطئة فى تقدير إمكانياتها .

بمجرد وصولهم إلى باريس شعروا باكتئاب شديد . فى المحطة ذهلوا من تزاخم الناس أمام إلباب الخارجى . كانت السماء تمطر، ولم يستطيعوا الحصول على عربة . كان عليهم أن يسيروا طويلا وهم يحملون لفائفهم

الثقيلة التى أنهكت قواهم واضطرتهم إلى التوقف فى منتصف الطريق ، معرضين أنفسهم لأخطار العربات ولما تقذفهم به من طين ، فلم يرد حوذى واحد على نداءاتهم . وأخيرا بينما هم يضعون لفائفهم على العربة سقطت منهم فى الطين لفة من الأعطية ، واستغل جهلهم حال المحطة الذى نقل حقائبهم والحوذى أن يذهب بهم إلى فندق من تلك الفنادق المرتفعة الأجر على الرغم من رداءتها ، والتى تعود القرويون أن يقصدوها متغاضين عن عيوبها لمجرد أن أحد أجدادهم كان يقصدها منذ ثلاثين عاما . استغلوا أشبع استغلال ، قيل لهم : إن الفندق ممتلئ فحشدوا جميعا فى غرفة ضيقة رغم أنهم دفعوا أجر غرف ثلاث ، ورغبةً فى الاقتصاد تجنبوا الأكل فى مطعم الفندق ، وطلبوا طعاما متواضعا كلفهم ثمنا لا يقل عن ثمن غذاء الفندق ، بل أجاجهم . وتلاشت آمالهم منذ اللحظة الأولى لوصولهم ، وفى أول ليلة يقضونها فى الفندق لم يتمكنوا من النوم فى الغرفة الرديئة التهوية التى احتشدوا فيها . شعروا بالبرد وبالحر وكادوا يحتنقون . كانوا يقفزون لوقع أى خطوات فى الممر ، أو لصوت الأبواب وهى تغلق أو الأجراس الكهربائية أولصوت العربات وضجيج سيارات النقل الذى لا ينقطع . وشعروا بالهول إزاء هذه المدينة الضخمة حيث ألقوا بأنفسهم فابتلعتهم

وفى اليوم التالى أسرعَت السيدة جنان إلى منزل أختها فى شارع هوسمان حيث تسكن شقة فاخرة . كانت تأمل - وإن لم تصرح بذلك - فى ان تعرض عليها الإقامة فى المنزل حتى تزول الضائقة ، وكانت المقابلة الأولى كافية لتشتيت أملها ، فأفراد أسرة بوابيه دى لورم كانوا ثائرين لإفلاس قريبهم ، خاصة الزوجة التى تخشى أن يجلب لهم ذلك العار ويضر بمستقبل زوجها . وترى فى ارتباط الأسرة البائسة بهم أمرا مشينا يزيد من الإضرار بسمعتهم . أما القاضى فكان تفكيره مائلا لتفكير زوجته . ولكنه كان على شىء من

الطيبة ، وربما كان مستعدا للمساعدة لولا تدخل زوجته ، رغم ارتياحه لمواقفها ، استقبلت السيدة بوابيه أختها ببرود شديد تأثرت له السيدة جنان ، ولكنها تغلبت على كبرياتها وحدثتهم بطريقة غير مباشرة عن الشدائد التي تحيط بها وعمما كانت تنتظره منهم . . ولكنهم بدوا كأنهم لم يسمعوا شيئا . حتى العشاء لم يطلبوا منهم أن ينتظروا لتناوله ، واكتفوا بدعوتهم لتناول العشاء رسميا في نهاية الأسبوع ، حتى هذه الدعوة لم تأت عن طريق السيدة بوابيه ، ولكن عن طريق القاضى الذى كان هو نفسه قد أخرجها استقبال زوجته لهم محاولا أن يخفف من حدة الموقف ، فتظاهر بالطيبة نحو السيدة جنان وولديها بعد أن شعروا أنه لم يكن صريحا كل الصراحة بل أنانيا شديدة الأنانية . وعاد أفراد الأسرة البائسة إلى الفندق ، ولم يجرؤوا على تبادل مشاعرهم نحو هذه الزيارة الأولى .

قضوا الأيام التالية يتجولون في باريس بحثا عن مسكن ، أنهمكهم صعود الأدوار المرتفعة والغرف المظلمة التى بدت كثيية بالنسبة لمنزهم الكبير في الريف . أخذوا يضيقون بهذه الحياة شيئا فشيئا . وكان تعجبهم الشديد لكل ما يرونه في الشوارع والمحلات والمطاعم سببا في استغلال الناس لهم . كان ثمن ما يطلبونه يرتفع فجأة ، كأن لديهم القدرة على تغيير كل مايلمسون إلى ذهب يدفعون ثمنه . كانوا على درجة هائلة من سوء التصرف عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .

وبالرغم من أن السيدة جنان لم يعد لها أمل في أختها كانت لا تزال تبني آمالا على دعوة العشاء التى كانوا يستعدون لها بقلوب واجفة ، ولكنهم قوبلوا فيها كمدعوين لا كأقارب ، ومع ذلك فإن أصحاب الدعوة لم يكلفوا أنفسهم سوى تكلفتهم في الاستقبال ، ورأى أوليفيه وأخته أولاد خالتهما ، كانا في السن نفسه تقريبا ، ولكن لقاءهم لم يكن أحسن من لقاء أبيهما

وأمرها . الفتاة الصغيرة الأنيقة المهتمة بمظهرها تتحدث إليهم بطرق مصطنعة جعلتهم في حيرة . الابن الصغير كان في ضيق لاضطراره إلى العشاء مع أقاربه الفقراء ، فبدأ مشمئزاً طوال الوقت . أما السيدة بوابيه فبدأت في جلستها مستقيمة لاتتحرك . وبدأت حتى وهي تقدم الطعام كأنها تعطي درساً لأختها . وأخذ زوجها يتحدث عن أشياء تافهة ؛ ليتجنب الأحاديث الجدية . ولم يخرج الحديث الفاتر عن نطاق الأكل ؛ خوفاً من الانسياق إلى أى موضوع آخر خاص وخطير . جاهدت السيدة جنان حتى استطاعت أن تجذب الحديث نحو الموضوع الذى يشغل بالها ، ولكن مدام بوابيه أسكتتها فجأة بكلمة عابرة ، فلم تعد السيدة جنان تجرؤ على معاودة الحديث فى الموضوع .

انتهى العشاء ، فدفعت السيدة جنان ابنتها إلى العزف على البيانو؛ لتظهر موهبتها ، كانت الفتاة ضجرة فجاء عزفها رديئاً . وبدأ الضيق على أفراد أسرة بوابيه ، فانتظروا حتى تنتهى أنطوانيت من العزف ونظرت السيدة بوابيه إلى ابنتها وحركت شفيتها بطريقة ساخرة . فلما استمرت الموسيقى وقتاً طويلاً عادت السيدة بوابيه تتحدث مع السيدة جنان فى أشياء ليست ذات أهمية . وأخيراً فقدت أنطوانيت السيطرة على القطعة الموسيقية عندما لاحظت أنها فى أحد المقاطع عادت تعزف القطعة من أولها بدلاً من إكمالها ، ووجدت أنها لن تستطيع التقدم أكثر من ذلك ، فأوقفت العزف بعد أن ختمته بلحنين غير صحيحين ولحن ثالث خاطيء ، وقال لها السيد بوابيه :

- أحسنت .

وطلب القهوة .

وقالت السيدة بوابيه: إن ابنتها كانت تأخذ دروساً عند بوجنو. ثم سألت: أين درست. أنطوانيت؟

وأخذ الحديث يفتر بعد أن استنفد كل ما يمكن أن يقال عن تحف الصالون وملابس السيدة بوايه وابنتها . وأخذت السيدة جنان تردد في نفسها :

- حان الوقت للكلام ، يجب أن أتكلم .

انقبضت أساريرها ، فبينما هي تبذل جهدا كبيرا وتوشك أن تتكلم إذ بالسيدة بوايه تفهمها عرضا وبلهجة لا تمت إلى الاعتذار بصلة ، أنهم يأسفون لاضطرارهم إلى مغادرة المنزل عند منتصف الساعة العاشرة تلبية لدعوة لم يستطيعوا تأجيلها . وشعر أفراد أسرة جنان بالإهانة ، فقاموا على الفور ؛ ليغادروا المكان ، وتظاهر أهل البيت بأنهم يريدون استبقاءهم ، ولكن بعد ربع ساعة سمع جرس الباب ، وأعلن الخادم عن قدوم بعض الأصدقاء من الجيران الذين يقطنون في الطابق الأسفل . وتبادل السيد بوايه وزوجته النظرات وهمسا إلى الخادم همسات سريعة ، ثم تتم بوايه بعذر ما وهو يدخل أسرة جنان إلى غرفة مجاورة ، كان يريد أن يخفى تماما عن أصدقائه وجود تلك العائلة التي تسيء إلى سمعته ، وأن يخفى وجودها عنده بالذات . ترك أفراد أسرة جنان في الغرفة دون موقد يدفئهم ، كان الولد والبنت في ثورة نفسية عنيفة لهذه الإهانات ، فثرثرت الدموع في عيني أنطوانيت ، وأرادت أن تغادر المنزل ، فقاومت أمها الرغبة بادية الأمر . فلما طال الانتظار قبلت الرحيل ، فخرجوا ولحق بهم بوايه في المدخل بعد أن أخطره الخادم برحيلهم ، واعتذر لهم ببعض عبارات تافهة متظاهرا بالإمساك بهم ، ولكنهم رأوا أنه كان يتعجل رحيلهم . وساعدهم في ارتداء معاطفهم وشيعهم إلى الباب بابتسامات وتحيات وكلمات رقيقة قالها بصوت خافت ، ثم أخرجهم ، وعندما عادوا إلى الفندق انفجر الولد والبنت يبكيان من شدة غيظهم ، وأخذت أنطوانيت تضرب الأرض بقدميها ، وأقسمت

ألا تزور هؤلاء الناس بعد ذلك أبداً . وانتقلت السيدة جنان إلى شقة في الدور الرابع لمنزل يجاور حديقة النباتات ، تطل على حوش مظلم مشقق الجدران ، أما غرفة المائدة وغرفة الاستقبال فتطلان على شارع مزدحم تمر فيه مركبات الترام التجارية وعربات نقل الموتى في صف طويل ينتهي في مقبرة ايفرى ، ويظل يتسكع فيه بين المقاعد ويتشاجر بأصوات عالية بعض الإيطاليين مع الصبية . لم يكن في استطاعة أسرة جنان ترك النوافذ مفتوحة بسبب هذه الضوضاء . وفي المساء عند العودة كان عليهم أن يشقوا طريقهم بين الامواج المتلاطمة من الجماهير المتسابقة الذين تفوح منهم رائحة كريهة . كان عليهم أن يعبروا الشوارع المزدحمة ذات الأرضية الموحلة ، وأن يمرؤا بأحد محلات الخمور القذرة بالدور الأرضى من المنزل المجاور والتي يقف على بابها عدد من الفتيات البدينات بوجوههم المنتفخة والشعر الأصفر ، وقد كسون وجوههن بطبقات من المساحيق المختلفة وأخذن يرقبن الناس بنظرات وقحة .

كان المال القليل الذى تملكه الأسرة ينفق سريعا . وأخذوا يراقبون كل مساء وهم يتحسرون الثغرة التى بدأت تتسع لتبتلع ما لهم . حاولوا أن يجرؤوا أنفسهم فلم ينجحوا فى ذلك ، فهم فى حاجة إلى سنوات من التجارب ليتعلموا فن الادخار ، خصوصا وأنهم لم يمارسوه منذ الصغر . فالذين لم يتعودوا التدبير بطبيعتهم يضيعون أوقاتهم إذا حاولوا ذلك . فبمجرد أن تلوح فرصة جديدة للإنفاق تراهم يستسلمون لها ويؤجلون التوفير لمرة أخرى . ثم عندما يحدث ويربحون أو يعتقدون تراهم يستسلمون لها ويؤجلون التوفير لمرة أخرى . ثم عندما يحدث ويربحون أو يعتقدون أنهم ربحوا أقل شىء ممكن يسرعون باستخدام ذلك فى مصروفات يتجاوز مجموعها ذلك الربح بعشرات المرات .

في خلال أسابيع نضبت موارد الأسرة ، واضطرت السيدة جنان إلى التنازل عن كل ما تبقى من كبرياء ، وذهبت بغير علم ولديها إلى طلب المساعدة من السيدة بوايه بحيث تلقاه وحده في مكتبه ، وتوسلت أن يمدّها بمبلغ بسيط حتى يجدوا عملا يعيشون منه . كان بوايه ضعيفا وإنسانا ، فوافق بعد أن حاول إرجاء الإجابة ، ولكنه في لحظة تأثر لم يملك فيها نفسه قدم لها مائتي فرنك . ومع ذلك فسرعان ما ندم على ذلك ، خاصة عندما اقتنع بخطئه أمام زوجته التي غضبت أشد الغضب لضعف زوجها وللمناورات التي ظنت أن مدام جنان تقوم بها .

أضاع أفراد أسرة جنان أيامهم يجوبون باريس بحثا عن عمل . لم تستطع السيدة جنان بأفكارها التي ورثتها عن بورجوازية الريف الثرية أن تقبل أعمالا غير حرة . ولم تقبل لابنتها بالعمل مربية ، أما الأعمال الأخرى فهي أعمال الدولة الرسمية غير المخلة بالشرف . كان لابد من وسيلة تمكن أوليفيه من تكملة دراسته ؛ ليصبح مدرسا ، أما أنطوانيت فكانت أمها تود إلحاقها بأحد معاهد التعليم لتعطي دروسا ، أو المعهد العالی للموسيقا تواصل فيه الدراسة حتى تحصل على إحدى جوائز البيانو .

أما المعاهد التي لجأت إليها أنطوانيت فقد وجدتها مكتفية بمدرسيها الذين يحملون مؤهلات لا يمكن أن يقارن بها مؤهل أنطوانيت البسيط وهو كفاءة التعليم ، وعليهم أن يعترفوا بأن قدرة أنطوانيت في الموسيقا عادية إذا قيست بمواهب آخرين لم يتمكنوا حتى من الظهور . اكتشفت الأسرة تلك المعركة الرهيبة من أجل الحياة . فباريس تستهلك من المواهب الكبيرة والصغيرة استهلاكاً جنونيا حتى ضاق بها الأمر، وأصبحت لاتدرى ماذا تفعل بكل هذه المواهب .

شعر الأخوان بشيء من اليأس ، وبالغا في عدم الثقة بمقدرتها واعتقدا

أنهما ليسا على قيمة كبيرة ، وتحمسا في إثبات ذلك لنفسيهما ولأمهما أما أوليفيه الذى لم يجد مشقة في أن يفوز بنصيب الأسد بين زملائه عندما كان في مدرسته بالريف فقد حطمته تلك التجارب ، وبدا كما لو أنه فقد كل ما يملك من مواهب - التحق بالليسيه وحصل على المجانية . ولكن حدث في بادىء الأمر أن جاء ترتيبه متأخرا لدرجة أفقدته تلك المجانية . لقد ظن نفسه أبله تماما ، وشعر في الوقت نفسه بالاشمئزاز نحو باريس ونحو هذه المخلوقات المتزاحمة المتلاحقة ، ونحو نسق زملائه الذى لا يطاق وأحاديثهم الدنيئة وحيوانية البعض ممن لا يتورعون عن أن يتقدموا إليه بعروض بشعة . ولم يكن حتى ليقوى على أن يواجههم بمقدار احتقاره لهم . فكان يشعر بنفسه ذليلا لمجرد التفكير في مذلاتهم . أخذ يلجأ مع أمه وأخته إلى الصلوات الحارة التى كانوا يؤدونها معا كل مساء ، وذلك بعد أن ينتهى يوم جديد مملوء باليأس والمهانات . كانت تلك المهانات وصمة لأولئك الأشخاص ذوى القلوب البريئة لا يجرون على التحدث عنها فيما بينهم . ولكن إيمان أوليفيه بدأ يتزعزع شيئا فشيئا عندما احتك بروح الكفر المنتشرة في باريس . كان يحدث له ذلك دون أن يشعر به ، كما يحدث لطبقة الجير الحديث أن تتساقط على الجدران عندما تنزل عليها الأمطار . كان لا يزال مؤمنا ، ولكن حيثما اتجه كان يجد فكرة الإيمان تحتضر .

أما أمه وأخته فأخذتا تواصلان مساعيها الفاشلة . عادت السيدة جنان لمقابلة أسرة بوايه التى أزدات التخلص منها ومن ولديها ، فهيات لها ولابتها عملا . عرضوا على الأم أن تعمل خادمة لسيدة عجوز تقضى الشتاء في جنوب فرنسا . أمانطوانيت فوجدوا لها وظيفة مدرسة خاصة لأسرة من غرب فرنسا تقضى العام كله في الريف .

وبالرغم من أن شروط العمل كانت لا بأس بها فقد رفضته السيدة

جنان، ولم يكن ذلك لشعورها بالذلة من خدمتها للآخرين فحسب، ولكن لأنها لم تشأ أن تعرض ابنتها لهذا الهوان، لاسيما أن أنطاونييت ستكون بعيدة عنها. ومهما تبلغ بهم التعاسة فلم يفترقوا؛ إذ أن هذه التعاسة نفسها هي التي جعلتهم يتمسكون بالبقاء معا. وحملت لهم السيدة بوايه ذلك على محمل سيء وقال: إنه إذا لم يكن لدى الإنسان الإمكانيات الكافية فعليه ألا يتصنع الكبرياء. ولم تتمالك السيدة جنان شعورها فوصمت شقيقتها بقسوة القلب، فتفوهت السيدة بوايه ببعض العبارات الجارحة عن الإفلاس وعن المال الذي تدين به السيدة جنان. افترقا فراقا لا لقاء بعده أبدا، وانقطعت العلاقات تماما بينهما. وأصبحت السيدة جنان لاهم لها إلا أن ترد لأسرة بوايه المال الذي اقترضته منهم، ولكن ذلك لم يكن في استطاعتها.

استمرت المحاولات بدون جدوى. وذهبت السيدة جنان لمقابلة نائب منطقتها البرلماني وشيخها، وكان جنان قد أدى لها كثيرا من الخدمات، ولكنها قوبلت في كل مكان بنكران الجميل، فثابت المنطق لم يهتم حتى بالرد على خطاباتها، وعندما جاءت تطرق بابها أرسل إليها من يبلغها بعدم وجوده. أما عضو الشيوخ فقد حدثها حديثا فيه غلظة مظهرها أسفه لمركزها الذي عزاه إلى جنان الحقير وهو يلومه على انتحاره لوما عنيفا. ودافعت السيدة جنان عن زوجها، فأردف الشيخ قائلا: إنه يعرف جيدا أن جنان لم يتصرف عن قلة شرف ولكن عن غباء، وأنه كان إنسانا ساذجا وشبهه بخنفس حقير، لا يريد أن ينفذ إلا ما يدور برأسه، دون استشارة أحد، ويأبى الاستماع إلى أية نصيحة. ولو كانت المصيبة حلت به وحده لكان خيرا وما كان لأحد أن يقول شيئا، أما أن يلقي بزوجه وولديه إلى البؤس يزرعهم فيه ويتركهم ليتصرفوا حسبما يستطيعون، بالإضافة إلى الأضرار البالغة الأخرى، فذلك أمر تستطيع السيدة جنان أن تغفره له إذا

كانت قديسة ، أما هو - عضو مجلس الشيوخ الذى ليس بقديس ، والذى يكفيه أن يكون رجلا عاملا رزينا - فليس لديه أى مبرر ليغفرله ، فالشخص الذى يتحرر فى مثل هذه الأحوال إنسان حقير . شىء واحد يستطيع أن يخفف الجرم بالنسبة لجنان ، أنه لم يكن مسئولاً تماماً عن الأحداث التى دفعته إلى الانتحار .

اعتذر عضو مجلس الشيوخ للسيدة جنان لاندفاعه والحديث عن زوجها ، وعزا ذلك إلى عطفه عليها . ثم فتح درج مكتبه وأخرج منه ورقة ذات الخمسين فرنكا وقدمها لها ، كأنها صدقة ، فرفضتها .

بحثت عن عمل فى مكاتب إحدى المصالح الكبرى ، وذهبت كل محاولاتها عبثاً ودون نتيجة . وكلما استجمعت قواها لتحقق خطوة ما عادت مثبطة الهممة لدرجة لا تستطيع معها الحركة عدة أيام ، ثم عندما تقرّر معاودة الكرة تكون الفرصة قد ضاعت لم تكن خطأً عند رجال الكنيسة ، ربما لأنهم لا يجدون لهم مصلحة فى مساعدتها أو لأنهم لم يهتموا بأمر أسرة مفلسة اشتهر عائلها بعدوانته لرجال الدين . كل ما استطاعت السيدة جنان أن تحصل عليه بعد جهود كبيرة هو عمل فى إحدى المدارس بالراهبات كمدرسة لليبانو، عمل غير مُجْزٍ بأجر يثير السخرية . ولكى تزيد دخلها قليلاً أخذت تقوم بنسخ الأوراق مساء كل يوم لأحد المكاتب . كانت تعامل بقسوة ، وبالرغم من مثابرتها فقد كان خطها وزهوها يجعلانها تنسى كلمة أو سطراً فتحصل على ملاحظة جارحة . وبعد أن تدمى عينيها وينحنى ظهرها من كثرة الكتابة حتى منتصف الليل ترفض النسخة التى كتبتها ، وتعود إلى المنزل مضطربة . كانت تقضى أياماً تتألم فيها دون أن تهتدى إلى حل ما . كانت منذ زمن طويل تشكو مرضاً بالقلب زادت المحن من خطورته ، فأوحى إليها ذلك بإحساسات مخيفة ، كانت تعترها أحياناً

حالات من الخوف ، وتشعر باختناق كأنها على وشك أن تموت . ولم تعد تغادر منزلها إلا ومعها اسمها وعنوانها ، خشية أن تسقط في الطريق . ماذا يحدث لو اختفت عن الحياة ؟ كانت أنطوانيت تعاونها بقدر الإمكان ، مصطنعة الاطمئنان وهي غير مطمئنة . كانت تتوسل إليها أن تحافظ على صحتها وتركها لتعمل بدلا منها . ولكن السيدة جنان كانت تعمل بما تبقى لها من كبرياء ، على الأقل حتى لا تلقى ابنتها تلك المهانات التي كان عليها أن تقاسيها .

حاولت أن ترهق نفسها في العمل وأن تقلل من النفقات ، ولكن على غير طائل؛ إذ أن دخلها كان لا يكفي مطالب العيش ، فاضطرت ان تبيع بعض الحلى التي تبقت لها ، وألمها أن ثمن تلك الحلى سرق منها في اليوم الذي حصلت فيه عليه . فقد فكرت المسكينة التي كانت دائما شاردة أن تنتهز الفرصة وتدخل محل « بون مارشييه » لتشتري هدية صغيرة لأنطوانيت بمناسبة عيد ميلادها . كانت ممسكة بحافظة نقودها بيدها حتى لاتضيع منها ، وبحركة آليه وضعتها لحظة على المنضدة لتفحص شيئا ما ، فتفقدت الحافظة فاذا بها اختفت ، وكانت تلك هي آخر لطمة .

بعد بضعة أيام وفي إحدى الأمسيات الأخيرة الخانقة من شهر أغسطس ، وكان الضباب الكثيف يسير متاقلا فوق المدينة ، عادت السيدة جنان من عملها في مكتب النسخ حيث كان عليها أن تسلم بعض الأوراق العاجلة ، فوجدت أنها تأخرت عن موعد العشاء ، فأسرعت في مشيتها إلى حد الإرهاق حتى لايشعر ولداها بالقلق عليها . وعندما وصلت إلى مسكنها بالدور الرابع لم تعد تستطيع أن تتكلم أو تتنفس ، لم تكن تلك أول مرة تغدو فيها على مثل هذه الحال ، حتى اعتاد ولداها على ذلك . وبمجرد وضوئها تحاملت على نفسها لتجلس معها إلى المائدة . كان أوليفيه وأنطوانيت

متضايقين من شدة الحر لدرجة لم يتمكنوا معها من تناول الطعام . كان عليها أن يبذلا مجهودا لايتلاخ بعض قطع من اللحم وبعض جرعات من الماء الذى لا طعم له ، وذلك على كره منهما ، ورغبة منهما فى أن يتركا لأمهما الفرصة لتستعيد قواها ، كفا عن الحديث ، وما كان عندهما ميل إليه ، وأخذوا ينظران ناحية النافذة .

اهتزت السيدة جنان فجأة وتشبث بالمائدة ، ونظرت إلى ولديها ثم أصدرت أنينا وانهارت . اندفع أوليفيه وأنطوانيت فى الوقت المناسب ليلتقاها كل منهما بين ذراعيه وأخذوا يصرخان ويستنجدان كالمجانين :

- أمى ، أمى الحبيبة .

ولكن الأم لم تعد تجيب ، فطار صوابها ، وضمت أنطوانيت أمها بحركة عصبية وهى تقبلها وتناديها . وفتح أوليفيه باب الشقة وصرخ :

- النجدة !

صعدت زوجة البواب سلم المنزل فقزا ، وعندما تبينت الأمر أسرعت تستغيث بطبيب من الجيران . ولكنه لم يستطع عند وصوله أن يفعل شيئا ، وقرر أن كل شىء قد انتهى ، كان الموت - لحسن حظ السيدة جنان - مفاجئا . ولكن من يستطيع أن يعرف ما كان يدور بخلدتها فى لحظاتها الأخيرة وهى ترى نفسها تموت تاركة ولديها وحيدين للشقاء !

تحملا وحدهما الكارثة ، وبكيا وحدهما ، وأشرفا وحدهما على الترتيبات البشعة التى تتبع الوفاة . كانت زوجة البواب امرأة طيبة فساعدهما قليلا ، وتلقيا من مدرسة الراهبات - حيث كانت تعمل أمها - بعض عبارات فاترة من المواساة .

غمر اليأس لحظاتها الأولى بشكل لا يوصف ولم ينقذهما من اليأس إلا

تتأديها فيه، مما أدى بأوليفيه إلى حالات تشنجية حقيقية . وشغلت أنطوانيت عن الأم ولم تعد تفكر إلا في أخيها . وتغلغل حبها العميق في نفس أوليفيه ، انتشلتها من الحالات النفسية الخطيرة حيث كاد الألم يودي به . واقترب الصغيران معا من السرير الذي كانت ترقد عليه أمهما ، تحت ضوء مصباح خافت ، وأخذ أوليفيه يردد أنه لا بد من أن يموتا معا ، وأن يموتا في الحال . وأشار إلى النافذة ، وشعرت أنطوانيت أيضا بهذه الرغبة التعمسة ، ولكنها قاومتها ، فقد كانت تريد الحياة .

- لماذا ؟

وأجابت أنطوانيت وهي تشير إلى أمها :

- من أجلها . إنها ماتزال معنا فكراً ، بعد كل ماقاست من أجلنا ، يجب أن نوفر عليها ألم رؤيتنا نموت تعساء . ثم تنهدت بانفعال وهي تضيف :

- يجب ألا نستسلم هكذا . . إنني أرفض - إنني أثور أخيرا . . أريدك أن تصبح سعيدا في يوم من الأيام .

- مستحيل !

- نعم ستصبح سعيدا . لقينا من المصائب أكثر مما نحتمل ، ولكن ذلك سيتغير ، يجب أن يتغير ، ستكون نفسك ، وستصبح لك أسرة ستظفر بالسعادة ، إنني أريد ذلك ، أنا أريده !

- كيف نعيش ؟ لن نستطيع ذلك أبدا !

- سنستطيع ذلك ، ماذا يلزمنا؟ أن تتمكن من البقاء حتى تكسب أنت عيشك - إنني أنكفل بهذه المهمة ، وسترى أنني سأتمكن من ذلك . آه! لو تركتني أمي لأعمل لكنت استطعت الآن . .

- ماذا تريدان أن تفعل؟ لا أريدك أن تأتي أفعالا مشينة . وعلى كل حال لن تستطيعي .

- أستطيع . وليس هناك مايشين في كسب العيش عن طريق العمل مادام شريفا ، أرجوك ألا تقلق يا أوليفيه . سترى أن كل شيء سيسوى ، وأنتك ستصبح سعيدا ، فنحن الاثنان ستصبح سعيدين يا أوليفيه ، وأيضا أمنا ، ستصبح سعيدة بنا .

سارا وحدهما وراء نعش أمهما ، كانا قد اتفقا فيما بينهما على ألا يقولا شيئا لأسرة بوايه ، فلم يعد لها وجود بالنسبة إليهما ، بعد أن أظهرت قسوة لا متناهية نحو أمهما ، وكانت سببا من أسباب موتها ، ولما سألتها زوجة البواب إذا كان لها أقارب ، أجابها :

- لا أحد .

صليا أمام القبر المفتوح وأمسك كل منهما بيد الآخر . تجلدا وفضلا في إصرار وكبرياء يائسين الوحدة على وجود أقارب منافقين لا يهتمون بها . عادا مشيا على الأقدام وسط هذا الجمهور الغريب عن حزنهما ، وأفكارهما ووجودهما كله . جمهور لايربطه بهما إلا اللغة التي يتحدثان بها ، وتأبطت أنطوانيت ذراع أوليفيه أثناء عودتها .

استأجرا شقة صغيرة في الطابق الأخير من المنزل ، مكونة من حجرتين علويتين وحجرة صغيرة ، كان عليهما أن يستعملها كغرفة للطعام ، ومطبخ لايزيد حجمه على حجم دولاب مطبخ ، كان في إمكانهما إيجاد مسكن أفضل من هذا في حى آخر ، لولا أنها كانا يشعران أنها هنا لايزالان مع أمهما ، وأظهرت لها زوجة البواب اهتماما مبعثه الشفقة ، لكن سرعان ما

شغلت عنهما بأعمالها الخاصة . ولم يعد أحد يهتم بهما ، فلا أحد من سكان المنزل يعرفهما ، ولا هما كانا يعرفان من يسكن بجوارهما .

توصلت أنطوانيت إلى العمل محل أمها كمدرسة للموسيقا بمدرسة الراهبات ، وبحث عن دروس أخرى تعطيها إلى جانب عملها . كان كل همها أن تربي أخاها حتى يستطيع أن يلتحق بمدرسة المعلمين . قررت ذلك وحدها . ودرست البرامج . قامت بالاستعلام ، ثم حاولت أن تحصل أيضا على رأى أوليفيه ، ولم يكن له رأى قط ، كانت هى التى اختارت له ، فإن قبوله بمدرسة المعلمين يضمن له عيشة بقية حياته ، ويصبح سيد مستقبله . كان يجب أن يصل إلى تلك المدرسة ، وكان على الأخوين أن يعيشا معها كلفهما ذلك حتى يصل أوليفيه إلى هدفه بعد خمس سنوات أو ست مليئة بالقسوة ، ولكنها سوف يتغلبان عليها . ، وقويت هذه الفكرة لدى أنطوانيت حتى اقتنعت تماما بها . فحياة البؤس والوحدة التى كانت مقبلة عليها والتى رأتها بوضوح تمر أمامها لن تكون محتملة إلا بفضل حماسها الشديدة الملحة فى أن تنقذ أخاها ، وأن تجعله يصبح سعيدا حتى ولو لم يعد فى استطاعتها هى أن تصبح سعيدة . هذه الفتاة الصغيرة الساذجة العطوف التى لم تتجاوز السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها تغيرت تماما بعد أن اتخذت قرارها الباسل . كانت تعمل رغبة فى التضحية وتزداد كبرياء أمام الصراع ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن يتصور مثل هذه المشاعر . هى نفسها كانت آخر من يستطيع تصورها . فى هذه الفترة الحرجة من حياة المرأة التى تشبه أول أيام الربيع النابضة بالحرارة ، حيث تسيطر عاطفة الحب على الإنسان وتغمره كأنه نهر خفى يصطخب فى بطن الأرض ، تلك العاطفة التى تلفه وتغرقه وتتركه فى حالة دائمة من الوسوسة ، فى هذه الفترة يأخذ الحب مختلف الأشكال ، فمن تسيطر عليه قوى الحب لا يطلب

إلا أن يهب نفسه ويقدمها قربانا ، ملتصقا لذلك شتى الأعذار . فالمشاعر الغريزية البريئة العميقة كثيرا ماتتطور إلى تضحيات . وهكذا جعل الحب من أنطوانيت فريسة للصدقة .

أما أخوها الذى لم يكن شديد العاطفة مثلها فلم تملكه تلك القوى الدافعة . وأما التضحية فكانت من أجله هو ، ولم يكن هو الذى يقوم بالتضحية ، وهو أمر أيسر بالنسبة لمن يجب . وعلى العكس كان أوليفيه يشعر بتأنيب ضمير عندما يرى أخته وقد أضناها التعب ، كان يصرح لها بذلك فترد عليه . :

- آه يا صغيري المسكين ! ألا ترى أن هذا هو الذى يجعلنى أعيش ؟ وهل هناك دافع لى غير ذلك التعب الذى أبذله من أجلك ؟

كان يفهم ذلك جيدا . ولو كان محل أنطوانيت لحرص أيضا على هذا التعب المحبب إلى النفس . أما أن يكون هو سبب ذلك التعب ، فإن كبرياءه وقلبه ليتألمان لذلك ، وياله من عبء مضمن بالنسبة لإنسان ضعيف مثله أن يتحمل المسؤولية التى أثقل بها كاهله . كان لزاما عليه أن ينجح مادامت أخته قد قامت بحياتها على هذا الأمل ، لم يكن أبدا يستطيع أن يتحمل مثل هذه الفكرة التى بدلا من أن تضاعف قواه ، كانت تضنيه فى بعض الأحيان ، ومع ذلك أرغمته تلك الفكرة على أن يقاوم ، وعلى أن يعمل ، وعلى أن يعيش ، وهذا ما لم يكن فى مقدرتة لو لم يجد نفسه مضطرا إليه . كان لديه استعداد للهزيمة ، وربما للانتحار ، بل ربما انتهى إلى ذلك لو لم تكن أخته أرادت له الطموح والسعادة . كان يؤله أن يخضع لغير طبيعته ومع ذلك فهذا هو السبيل الوحيد إلى إنقاذه . كان هو أيضا يجتاز مرحلة خطيرة من الحياة ، هذه المرحلة المخيفة التى يسقط فيها ملايين من الشبان الذين يستسلمون لخداخ حواسهم ، ويضحون نهائيا بكل حياتهم فى

سبيل عامين أو ثلاثة من الملذات . ولو وجد أوليفيه متسعا من الوقت يستسلم فيه لأفكاره لوقع في اليأس أو الانحلال . كان كلما وجد فرصة يتأمل فيها نفسه انشغل بأوهامه المريضة بالنفور من الحياة ومن باريس ومن اختلاط هؤلاء الملايين من البشر اختلاط تفوح منه رائحة عفنة . ولكن كان مجرد رؤيته لأخته كفيلا بتبديد هذا الكابوس ، وبما أنها لا تعيش إلا من أجله فسيقبل الحياة ، نعم ، سيصبح سعيدا على الرغم منه .

شيدت حياتها على أساس إيمان عميق قوامه التصوف والتدين والطموح الرفيع ، واتجه الأخوان بكل كيانهما نحو هذا الهدف الأوحى ، نجاح أوليفيه . قبلت أنطوانيت أن تقوم بأى عمل ، رضيت بالملذات جميعا ، اشتغلت مدرسة للأطفال فى بيوت عوملت بها معاملة تشبه معاملة الخدم ، كان عليها أن تحرس تلميذاتها فى نزهاتهن كأنها خادمة ، وأن تسير معهن ساعات طوالا فى الطرقات ، على الرغم أنها تعلمهم اللغة الألمانية ، إن حبها لأخيها وكبرياءها أيضا ، جعلها تجد عذوبة فى هذه الآلام النفسية وفى تلك المتاعب .

كانت تعود إلى المنزل مرهقة ؛ لتعنى بأوليفيه الذى يفضى يومه فى الليسيه كنصف داخلية ، ولا يعود منها إلا فى المساء . كانت تعد العشاء على موقد غازى أو على موقد كحولى ، وكان أوليفيه لا يشعر بالجوع أبدا ، يتأفف من كل شىء ويسبب له اللحم النفور ، وكان لابد من دفعه على الأكل أو التحايل عليه بأصناف لذيذة تعجبه . ولم تكن أنطوانيت المسكينة طاهية ماهرة ، ولم يكن يكدرها بعد أن تبذل كل جهودها فى إعداد الطعام أن يصرح أمامها أن طعامها لا يؤكل ، ولم تصل إلى نتيجة ما إلا بعد أن يشتت مرات عديدة أمام موقدها فى المطبخ ، هذا اليأس الصيامت الذى

تعرفه ربات البيوت الصغيرات غير الماهرات يسمن أيامهن وأحيانا لياليهن دون أن يشعر أحد بأمرهن

وبعد العشاء تنتهى أنطوانيت من تنظيف الأواني القليلة التى استعملها رافضة مساعدة أخيها كلما حاول ، ثم تهتم بدروس أخيها اهتمام الأم بولدها ، فتستذكر له تلك الدروس ، وتراجع واجباته ، بل تساعدته أيضا فى بعض أبحاثه ، وهى حريصة على ألا تجرح شعور هذا الإنسان الصغير الشديد الحساسية .

كانا يقضيان الأمسية حول المنضدة الوحيدة التى يملكانها والتى يستعملانها للطعام والكتابة معا . وبينما كان أوليفيه يكتب واجباته كانت تقوم هى بالحياكة أو تفسخ بعض الأوراق ، وعندما يكون نائما تهتم بإصلاح ملابسه أو تؤدى بعض أعمالها هى .

وبالرغم مما يصادفهما فى تصريف أمورهما من عقبات فقد قررا أن كل ما ينجحان فى ادخاره سيستخدمانه قبل كل شىء فى التحرر من الدين الذى كانت أمهما قد اقترضته من أسرة بوايه ، مع أنها فى الواقع لم يشعرأ بأن أسرة بوايه من أولئك الذين يلاحقون مدينهم بمضايقاتهم ، بل إن أحدا منهم لم يحاول رؤية آل جنان ، وأصبحوا لا يفكرون فى هذا المال الذى ظنوه قد فقد نهائيا ، كانوا يعتبرون أنفسهم فى منتهى السعادة إذ تخلصوا من أقاربهم المخرجين بهذا الثمن ، ولكن كبرياء الولدين وعاطفة البنة عندهما جعلتهما يتألان من أن تكون أمهما مدينة بشىء لهؤلاء الناس الذين يحتقرونها . حرما نفسيهما وادخرا على حساب أبسط ما يحق لهما من تسليات وعلى حساب ملابسها وطعامها حتى يصلا إلى جمع المائتى فرنك ، وهو مبلغ هائل بالنسبة لهما ودت أنطوانيت لو حرمت نفسها وحدها ، ولكن عندما اكتشف أخوها عزمها لم يمعنه شىء من أن يجذو حدوها . أضنيا نفسيهما فى

سبيل هذه الغاية ، وكان يسعدنا أن يدخرا بضعة سنتيمات كل يوم .

تحملا شدة الحرمان فتوصلا إلى جمع المبلغ سنتيما بعد سنتيم في مدة ثلاث سنوات ، كانت فرصة كبيرة ، ذهبت أنطوانيت في إحدى الأمسيات إلى أسرة بوايه واستقبلت بدون ترحيب ، فقد ظنوا أنها جاءت تطلب المساعدة ، ورأوا من الأفضل لهم أن يبادروا بلومها بطريقة جافة ؛ لأنها لم تزودهم بأى أخبار عن أسرهم ، ولم تبلغهم حتى نبأ وفاة أمها ، ولأنها لاتأتى إلا حينما تكون في حاجة إليهم . قاطعتهم قائلة :إنها لاتنوى إزعاجهم وإنما أتت لتعيد إليهم ما اقترضته أمها منهم . وضعت الورقتين المائيتين على المنضدة ، وطلبت منهم مخالصة بالدين . وفي الحال تغيرت معاملتهم وتظاهروا بعدم رغبتهم في قبول المبلغ . كانوا يشعرون نحوها بهذا النوع من العطف الفجائي الذى يشعر به الدائن نحو المدين عندما يرد إليه بعد سنوات ديناً فقد الأمل فيه . حاولوا يعرفوا اين تسكن مع أخيها وكيف يعيشان . تجنبت الرد وعادت تطالب بالإيصال ، ثم قالت :إنها ترغب فى الانصراف ، فحيتهم تحية باردة ثم انصرفت . شعر أفراد الأسرة بغضب شديد نحو هذه الفتاة الناكرة للجميل .

وجدت أنطوانيت نفسها قد تحررت من هذا الكابوس . عادت لتواصل حياة الحرمان ، ولكن من أجل أوليفيه ، كانت تبالغ فى إخفاء ذلك حتى لايراها وقد أخذت تدخر على حساب زينتها ، وأحيانا على حساب طعامها من أجل مظهر أخيها وتسليته ، ولكى تزين له الحياة وتجعلها أكثر عذوبة فعلت ذلك أيضا لتمكنه من حين لآخر من الذهاب إلى الحفلات الموسيقية ، بل إلى الاوبرا التى يعتبرها سعادته الكبرى . وما كان يرغب فى الذهاب إلى تلك الحفلات بدون أخته ، ولكنها كانت تخلق أعذارا تتخلص بها من الذهاب معه تريح بها ضميره : تدعى أنها متعبة أو أنها لاتشعر

بالرغبة في الخروج ، وأن تلك الحفلات تضايقها . ولم يكن يصدق مع هذه الأكاذيب التي يولدها حب اخته له ، ولكن أنانية الصغير كانت تتغلب في نهاية الأمر . كان يذهب إلى المسرح فلا يكاد يجلس هناك حتى تعاوده هواجسه ، كان يفكر فيها طوال العرض فيفسد عليه ذلك سعاده ، وفي يوم أحد أرسلته لحضور حفل موسيقا في مسرح الشايتليه ، فإذا به يعود بعد نصف ساعة قائلا لها : إنه لم يجد الشجاعة - وقد وصل إلى كوبرى سان ميشيل - لأن يواصل طريقه . لم يعد ذلك الحفل الموسيقى يعجب ؛ إذ أنه أصبح يتألم كثيرا لعدم مشاركتها إياه في السرور . ولم يكن هنال شىء أحب إلى نفس أنطوانيت مما سمعت ، على الرغم من أسفها لحرمان أخيها بسببها من تسلية يوم الأحد . ولكن أوليفيه لم يفكر في هذا الأسف . وحين رأى عند عودته وجه أخته يتهلل بفرحة تحاول دون جدوى أن تخفيها ، شعر بأنه أكثر سعادة مما لو كان قد استمع إلى أجمل موسيقا في العالم . وقضيا فترة مابعد الظهيرة جالسين كل أمام الآخر ، إلى جانب النافذة : هذا بكتاب في يده ، وهى بأشغال الإبرة ، لا هو يقرأ ، ولاهى تعمل ، ولكنها كانا يتحدثان عن أشياء تافهة لاتهمه ولاتهمها . ومع ذلك فلم يجدا أجمل من هذا الأحد ، واتفقا على ألا يعودا إلى الافتراق من أجل حفلات الموسيقى ، فقد أصبح كل منهما عاجزا عن الحصول على السعادة بمفرده .

نجحت في أن تدخر في الخفاء مايكفى من المال لتفاجىء أوليفيه بأن تقدم له بيانو تؤجره له . وبطريقة تقسيط معينة يصبح ملكا خالصا له في خلال عدة شهور . وياله من حمل ثقيل أضافته إلى حملها ! . . فهى استحقاقات بالنسبة لها كالكابوس تفسد صحتها بحثا عن المال اللازم ، ولكن كم حققت لها هذه الحركة الجنونية من سعادة ؛ فالموسيقا كانت جنتها في هذه الحياة القاسية ، لقد احتلت مكانا ضخما من حياتها ولاذا بها لينسبا متاعب الدنيا ، ولم يكن ذلك خطرا ؛ فالموسيقا من أمضى المؤثرات الحديثة

على النفس البشرية ، فهي تملأ النفس بخمول دافئ أو بما يشبه جو الخريف المثير فتصحو المشاعر ، وكانت متنفساً لروح مكرهة على عمل مفرد لابهجة فيه مثل عمل أنطوانيت ، وكان حفل الأحد الموسيقي كالضوء الوحيد الذى يتلأأ بعد أسبوع من العمل المتواصل . كانا يعيشان على ذكرى آخر حفل موسيقي ذهبا إليه ، وعلى أمل الحفل المقبل ، على هاتين الساعتين أو الثلاث الساعات التى يقضيانها على هامش الزمن ، بعيداً عن باريس ، وفى انتظار طويل خارج المسرح تحت المطر أو الثلج المتساقط ، فى البرد أو الهواء جنباً إلى جنب ، وهما يرتعدان خوفاً من ألا يجد أماكن ، كانا يسارعان بالدخول إلى المسرح يجلسان فى أماكن ضيقة مظلمة حيث يضيعان وسط الزحام . كانا يختنقان ويدهمهما الناس ويكادان يغمى عليهما من شدة الحر والضيق ، ولكنهما كانا سعيدين ، وكان كل منهما سعيداً بسعادته وسعادة الآخر ، وكم كان يسعدهما أن يمتلئ قلباهما بالمحبة والنور والقوة التى تندفق من روح بتنهوفن وفاجنر الكبيرين . كل منهما كان سعيداً بأن يرى وجه أخيه يضىء ، بعد أن أضناهما التعب والهجوم السابقة لأوانها . وكانت أنطوانيت تشعر بمنتهى التعب ، فتلقى بنفسها فى العشب الدافئ اللذيذ كأنها هى بين يدي أم تضمها إلى صدرها وتبكي فى صمت ، فيأخذ أوليفيه يضغط على يدها . لم يكن يلتفت إليها أحد فى ظلام المسرح الضخم الذى لم يكونا الوحيدين فيه بين الأرواح المعذبة التى تلجأ إلى حنان الموسيقا الذى يشبه حنان الأم .

كانت أنطوانيت متدينة إلى درجة كبيرة ، إذ أن الدين إلى جانب الموسيقا كانا يعينانها على الحياة . لم يفتها أبداً أداء صلوات طويلة حارة كل يوم ، كما لم تهمل الذهاب إلى الكنيسة كل أحد . ووسط هذه الحياة المليئة بالتعاسة الظالمة لم تستطع أن تمنع نفسها من الإيمان بحب الإله الذى يرحمنا ، وكانت

على صلة قوية بمن فقدتهم ، فقد كانت تشاركهم معها في كل محنها ، ولكنها كانت ذات روح متحررة وعقل قوى ، مما جعلها تبتعد عن باقى الكاثوليك الذين كانوا ينظرون إليها نظرة بعيدة عن الرضا ، والذين وجدوا فيها روحا شريفة ، فلم يكن إيمانها عن انقياد كالقطيع ، ولكن كان عن محبة .

أما أوليفيه فلم يكن مثلها ، تعذب كثيرا لذلك رغم أنه اجتاز أزمات نفسية شديدة ، ولكنه كان يحتفظ بقلب متصوف ؛ لذا عاش الاثنان في جو دينى . كل منهما يعود فى المساء بعد فراقهما طوال اليوم ، فتبدو لهما شقتها الصغيرة كالميناء ، كالملجأ الحصين ، فقيرة باردة إلا أنها ظاهرة بالرغم من ذلك ، لكم كانا يشعران وهما فيها بأنهما بعيدان عن أفكار باريس الفاسدة !

لم يتعودا التحدث كثيرا فيما يكونان قد فعلاه ، فعندما يعود الإنسان منهكاً إلى منزله لا يملك القوة ليعيش يومه الشاق مرة أخرى وهو يتحدث عنه ؛ ولهذا يحاولان جهدهما بطريقة لا إرادية أن ينسيا . كانا يحرصان على عدم طرح الأسئلة ، خاصة فى الساعة الأولى لعودتهما عندما يلتقيان على العشاء . كانا يتبادلان التحية بالنظر ، وأحيانا لا ينطقان بكلمة واحدة أثناء الطعام ، وتنتظر أنطوانييت إلى أخيها الذى يترك طعامه ويستسلم لأحلامه كما كان يفعل من قبل عندما كان صغيرا ، وتداعب يده بلطف وتقول وهى تبتسم :

- هيا تشجع !

يبتسم ويستأنف طعامه وينتهى العشاء دون أن يبذلا أى محاولة للحديث . كانا متعطشين إلى الصمت ، ولاتنحل عقدة لسانيهما إلا فى نهاية الطعام ، وذلك عندما يشعران بالراحة ، ويكون كل منهما وقد أحاطت به عاطفة الأخوة قد أزال عن نفسه آثار النهار البغيضة .

ويجلس أوليفيه أمام البيانو فيما تعودت أن تترك البيانو يعزف هو عليه ، إذ كانت تسليته الوحيدة ، فاستسلم له بكل مافيه من قوة
لقد خلق للموسيقا ، إن طبيعته الأنثوية تؤهله لأن بحب لا لأن يعمل ، كانت تمتزج بأفكار الموسيقيين الذين يعزف لهم ، وعذوب مع تلك الأفكار وتؤدى أدق معانيها بإخلاص ينبعث من العاطفة ، بقدماتسمح له على الأقل ذراعاه وطبيعته الضعيفة ، فكان ينهكه المجهود الهائل الذى يستلزمه عزف موسيقا تريستان أو السونات الأخيرة لبتهوفن . وهكذا كان يفضل الالتجاء إلى موسيقا موزار وجلوك التى كانت أنطوانيت تفضلها هى الأخرى .

كانت تغنى هى أيضا أحيانا ، ولكن أغنيات بسيطة للغاية لألحان قديمة كان صوتها من نوع الميتزو ذى النبرات المشوبة الحزينة المرتعشة ، كانت تحجل لدرجة لا تستطيع معها الغناء أمام أحد . حتى أوليفيه كانت تجد صعوبة فى الغناء أمامه ويكاد صوتها يختنق . وكان لحن بتهوفن فى الأغنية الإسكتلندية من الألحان المحببة إليها ؛ فهو وديع ورفيق كاسمه . «جونى الوفى» . . فهو يشبهها ، ولم يكن أوليفيه يستطيع أن يسمعها تغنى هذه الأغنية دون أن تترقق عيناه بالدموع .

أما هى فكانت تفضل سماع أخيها ، كانت تسرع فى إنجاز أعمالها المنزلية ، وترك باب المطبخ ؛ ليتاح لها أن تسمع أوليفيه جيدا ، وبالرغم من احتياطاتها أثناء العمل كان يشكو بعد أن ينفد صبره من الضجة التى تحدثها وهى تعيد الأوانى إلى مكانها ، حينئذ كانت تغلق الباب ، وعندما تنتهى من عملها تعود لتجلس على كرسى منخفض لا بالقرب من البيانو ، فأوليفيه لا يطيق رؤية أحد بجانبه عند العزف ، ولكن قريبا من المدفأة وفى هذا المكان ، كقطة صغيرة تكومت على نفسها تدير أنطوانيت ظهرها

للبيانو، وقد تعلقت عيناها بعيون الموقد الذهبية ، حيث تحترق قطعة من الفحم في صمت ، وتستسلم لصور الماضي . وعندما تعلن الساعة التاسعة تكون في حاجة إلى جهد ؛ لكي تذكر أوليفيه بأن الوقت قد حان للكف عن العزف . وكان من الصعب حمله على ترك موسيقاه ، كما كان من الصعب عليها التخلص من أحلامها . وكان لزاما على أوليفيه أن يستأنف عمله الدراسي في المساء دون أن يمتد به السهر، ولم يكن يطيع أخته على الفور لحاجته إلى بعض الوقت لكي يستطيع بعد الانتهاء من موسيقاه أن يعود إلى العمل . ويسبح بعيدا بأفكاره وتدق الساعة معلنة النصف أحيانا قبل أن يتنشل نفسه من عالم الأحلام ، وكانت أنطوانيت وهي منكبة على أشغال التطريز في الناحية الأخرى من المنضدة ، تعرف أنه يعمل شيئا ، ولكنها لا تجرؤ على أن تنظر كثيرا إلى ناحيته خوفا من أن يتضايق إذا شعر بمراقبتها له .

كان في سن المراهقة ، سن السعادة ، حيث تمر الأيام الحائرة ، كان ذا جبين نقي وعينين كعيون الفتيات ، نظراته حريئة وساذجة ، وكثيرا ما تحيط به هالة من التعب . وكان ذا فم كبير وشفاه منتفخة كشفتى الطفل الرضيع ، ذات ابتسامة حائرة ، غامضة تائهة ، شاردة ، أما شعره فكان غزيرا ينزل حتى عينيه ويؤلف وفرة على قفاه مع خصلة عنيدة منتصبة ، وحول رقبتة رباط مسترخ قليلا ، مع أن أخته هي التي كانت تعقده له بعناية كل صباح . وأما سترته فما كانت تثبت له أزرار بالرغم من أن أنطوانيت تضع وقتا طويلا في تشيبتها ، ولم يكن يضع للأكمام أهدابا ، وكان ذا يدين كبيرتين وقبضتين عظامهما بارزه .

كان أوليفيه يبدو ساخرا ناعسا مستسلما لجواسه وهو يحملق في الفضاء ، أما عيناها اللتان تنتقلان بين الأشياء فكانتا تدوران حول غرفة أنطوانيت

حيث المنضدة التي يعملان عليها . وتتسكعان على السير الحديدي الصغير الذي علق فوقه صليب من العاج مع غصن من البقس ، وعلى صورتى أبيه وأمه ، وعلى منظر قديم يمثل بلدتهما الريفية الصغيرة ببرجها ومياهها اللامعة ، وعندما تسقط عيناه على وجه أخته الشاحب وهى تعمل بصمت كان يحس بشفقة هائلة عليها وبثورة على نفسه ، فينتفض متضايقا من تكاسله ، ثم يعمل بنشاط ليعوض الوقت الذى أضاعه .

كان يقرأ خلال العطلات ، كان كل منهما يقرأ وحده ؛ إذ أنهما - على الرغم من حب أحدهما للآخر - لم يكونا يستطيعان قراءة كتاب واحد بصوت عال ؛ لأن ذلك يجرح شعورهما كما لو كان فيه ما يخذش الحياء . وكان يبدو لهما أن الكتاب النفيس سر لا تفوه به الشفاه ، لكن تحدث به القلوب . وعندما تستهوى أحدهما صفحة ما ، كان بدلا من أن يقرأها للآخر يعطيه الكتاب مشيرا بأصبعه على الجزء المقصود ، وبينما كان أحدهما يقرأ كان الآخر يتابع بعينين لامعتين ما يقرأ على وجه أخيه من مشاعر ويشاركه فيها . كانا يجلسان متكئين أمام كتابيهما لا يقرآن ، وإنما يتسامران . ولكم تغلغل الليل كلما احتاجا إلى أن يبوحا بها فى نفسيهما وبدا يتلاشى ما كانا يجدان من الصعوبة فى الحديث . وكانت تسلط على أوليفيه أفكار حزينة ، وكان على هذا الإنسان الضعيف أن يتخلص دائما من آلامه بأن يفرغها فى صدر إنسان آخر ، وكانت الشكوك تعذبه دائما ، وكان على أنطوانيت أن تعيد إليه شجاعته وأن تحميه مما يساوره : معركة لا تنتهى ، وتتجدد كل يوم ، ويبوح أوليفيه بأشياء مريرة ومحزنة ، لا يكاد يبوح بها حتى يشعر بالارتياح ، ولا يهيمه بعد ذلك أن يعرف ما إذا كان قد أثقل على أخته بما باح إليها به . ولقد مضت مدة طويلة قبل أن يلاحظ كيف كان يرضيها ويسلبها قوتها وينقل إليها شكوكه شيئا فشيئا . ولم تظهر أنطوانيت شيئا ، كانت

شجاعة بشوشة بطبيعتها ، تضغط على نفسها ؛ لتحفظ ببشاشتها في الظاهر في حين أنها فقدت مرحها من زمن . كانت تشعر في بعض الأحيان بملل شديد ، بثورة ضد حياة التضحية التي وهبتها نفسها ؛ ولكنها كانت تريد القضاء على تلك الأفكار، وترفض أن تتعمق فيها ، فهي تعاني منها دون أن ترضى بها . وكانت تستأنس بالصلاة إلا حينما لا يستطيع القلب أن يقوم بأدائها ، وقد يحدث هذا عندما يحف القلب تحت وطأة الآلام . حينئذ لا يبقى أمامها إلا أن تنتظر صامته محمولة خجولة - رحمة الله . ولم يدر بذهن أوليفيه شيء من هذه الهواجس أبدا ، أما أنطوانيت فعندما تمر بهذه الأزمت تبحت عن عذرها لتخلو لنفسها وتنفرد في غرفتها ، ولاتظهر إلا عندما تكون الأزمة قد مرت ، وعندئذ تبدو ابتسامتها وعليها آثار الألم أكثر رقة من ذي قبل ، كأنها تؤنب نفسها لاستسلامها للعذاب

كانت غرفتها متجاورتين وسريرتها لايفصلهما إلا حائط واحد . وكان في استطاعتها أن يتحادثا من خلاله بصوت خفيض ، وعندما يشعران بالأرق كانت بعض طرقات خفيفة على الحائط تقول :

- هل أنت نائم ؟ فأنا لم أتم .

وكان الجدار بينهما رقيقا لدرجة جعلتهما كصديقين طاهرين ينامان جنبا إلى جنب على سرير واحد ، ولكن الباب الذي يفصل بين الغرفتين كان دائما مغلقا في الليل بدافع من الخجل الفطري الخالص ، وهو شعور مقدس لديهما ، ولايظل هذا الباب مفتوحا إلا في حالة مرض أوليفيه ، وما أكثر ما يحدث ذلك .

لم يكن أوليفيه يسترد مايفقد من صحته ، بل يبدو أن صحته كانت في تقهقر مستمر . كان يشكو دائما من آلام في حنجرته ، وفي صدره ، في رأسه وفي قلبه . فإن رشحا بسيطا كان كافيا لأن يعرضه للأصابة بالتهاب رئوى ،

وقد أصيب بالحمى القرمزية وكادت تودى به ، وكانت تبدو عليه أعراض غريبة لأمراض خطيرة ، ولكن دون أن يصاب بها فعلا ، وكثيرا ما شعر بالأم حادة في الصدر أو في القلب قرر الطبيب الذى فحصه بأنه مصاب بالتهاب في الغشاء الرئوى . وأكد الطبيب الإخصائى الكبير الذى استشير بعد ذلك صحة التشخيص . ومع ذلك فلم يصب أوليفيه بشئ من هذا ، كان دائما مصابا باضطراب في الأعصاب . وهذا النوع من الآلام يتخذ عادة أشكالا لاخطر ببال أحد ، وإن كانت لا تكلف الإنسان سوى أيام من القلق ، ولكن كم هى قاسية بالنسبة لأنطوانيت ! وكم مرت بها من ليال وهى ساهرة !

كانت ترتعد خوفا عندما تقوم من سريرها لتتصت بجانب الباب إلى أنفاس أخيها معتقدة أنه أوشك على الموت ، كانت على يقين من ذلك ، بل كانت متأكدة منه ، وعندئذ كانت تتنفض وتضم يديها بشدة وتعقدهما على فمها حتى تمنع نفسها من الصراخ .

- يا إلهى . . لا تأخذه منى لا . . أتوسل إليك . . إنى اتوسل إليك ! آه
يا أمى العزيزة ! تعالى لنجدتى ! يارب أنقذ أخى . . دعه يعيش !

وتقف منتصبه إلى أعلى وهى تقول :

- آه ، كيف يموت في منتصف الطريق ، بعد كل ماحققناه ، بعد أن أوشكنا على الوصول إلى هدفنا ، وبعد أن أوشك أوليفيه أن يدرك السعادة . لا ، لا يمكن أن يموت . . إنها قسوة ، قسوة لا يمكن تحملها .

بدأ أوليفيه يسبب لها هموما أخرى ، كان شريفا مثلها ، ولكنه ضعيف الإرادة ، كانت أفكاره الحرة إلى أقصى حد والمعقدة في الوقت نفسه ، تجعله مبلبلا يشك في كل شئ ، يتساهل فيما يجهله وتجذبه الملذات إليها . وكانت

أنطوانيت على درجة من الطهارة جعلتها لاتفهم مايدور في ذهن أخيها إلا بعد زمن طويل . وفي يوم اكتشفت حقيقة الأمر فجأة .

ظن أوليفيه أن شقيقته غادرت المنزل ، فهي تعودت أن تخرج في تلك الساعة لإعطاء الدروس ، إلا أنه حدث في ذلك اليوم أن تلقت في اللحظة الأخيرة كلمة من تلميذتها تخطرأ فيها بأنها ستستغنى عن الدرس في ذلك اليوم ، وبالرغم من أن إلغاء هذا الدرس كان ينقص بضع فرنكات من ميزانيتها الضئيلة فقد سرت أنطوانيت لذلك في قرارة نفسها . كانت تشعر بسأم شديد ، فتمددت على سريرها ، وشعرت بسعادة ؛ لأنها تمكنت من الراحة يوما دون أن يقر فيها ضميرها . وعاد أوليفيه من الليسيه بصحبته أحد زملائه ، وجلسا في الغرفة المجاورة يتجاذبان أطراف الحديث . كان كل مايقولان مسموعا ، كانا يتكلمان بحرية تامة ظنا منهما أن المنزل ليس به أحد ، وظلت أنطوانيت تنصت باسمة إلى صوت أخيها المرح ، ولكنها بعد قليل توقفت عن الابتسام وجمد الدم في عروقها ، فقد أخذ الشبان يتحدثان في موضوعات غليظة معبرين عن ذلك بجرأة فاحشة ، وبدا عليها التلذذ من الحديث ، وسمعت أنطوانيت ضحكة أوليفيه صغيرها ، والكلمات البذيئة تخرج من بين شفثيه هاتين الشفتين اللتين كانت تعتقد حتى الآن أنها بريئتان ، وشعرت بألم حاد يحز في قلبها ، وكان هذا الموقف ولم يكف عن الكلام في هذا الحديث الذي احتذبهما والذي لم تستطع هي أن تمنع نفسها من أن تستمع إليه . وأخيرا خرج الصديقان وبقيت أنطوانيت وحدها، فبكت؛ إذ أن شيئا مامن نفسها كان قد مات ، ألا وهى تلك الصورة المثالية التى كانت قد كونتها فيما سبق عن أخيها، عن طفلها ، لقد تلوثت تلك الصورة ، وكان ذلك بالنسبة إليها عذابا مميता . وعندما تقابلا

في المساء لم تقل له شيئا ، ولاحظ أوليفيه أنها قد بكت ، ولكنه لم يعرف السبب ، ولم يفهم لماذا غيرت أنطوانيت معاملتها إزاءه

واحتاجت هي إلى بعض الوقت حتى تتمالك نفسها وتعود إلى طبيعتها ، ولكن أشد ضربة سددها إليها أوليفيه كانت تلك التي جعلته لايعود إلى المنزل ذات مساء ، وسهرت أنطوانيت طوال الليل في انتظاره ، وكانت تتألم ألما لا يتوقف على الجانب الخلقى الطاهر منها ، بل كان ينفذ إلى الأعماق الغامضة من قلبها ، تلك الأعماق التي تضرب فيها عواطف مهية كانت الفتاة تسدل عليها لثلا تراها حجابا لايباح كشفه .

وأهم مادفع أوليفيه إلى فعله هذا هو رغبته في إثبات استقلاله ، وقد عاد في الصباح متخذًا مظهرًا خاصًا ، وعلى استعداد لأن يجيب أخته بوقاحة إذا ماأبدت له ملحوظة ما . فمرق إلى داخل الشقة على أطراف قدميه حتى لايقظها ، ولكن عندما رآها واقفة تنتظره وقد بدا عليها الشحوب وظهرت آثار البكاء في عينيها الحمرأوين ، وهي تعد له طعام الإفطار قبل ذهابه إلى المدرسة في صمت ، دون أن توجه إليه لوما أو تقول له أى شيء ، وهي شديدة الإعياء ، كما لو كانت تمتلىء بتأنيب تجاهه ، لم يتمالك نفسه ، فارتقى تحت قدميها ، مخبئًا رأسه في رداثها ، وبكى ، فأخذ الاثنان يبكيان معا . كان خجلا من نفسه مشمئزًا من تلك الليلة التي قضاها يشعر أنه أصبح دينيًا . أراد أن يتكلم ، ولكن أخته منعه من ذلك ، وضعت يدها على فمه فقبل تلك اليد . ولم يتلفظا بشيء . كانا متفاهمين تماما . أقسم بينه وبين نفسه أن تكون أخلاقه عند حسن ظن أنطوانيت ، أما هي فلم تستطع أن تنسى بسرعة ما ألم به من جرح ، فكانت كالمتعافية من مرض ، وأصبح بين الشقيقتين عائق ما . لم يتزعزع حبه له ، ولكنها أصبحت ترى في نفس أخيها شيئًا غريبًا عنها ، شيئًا كانت تحشاه .

زاد من تأثرها إلى جانب ما اكتشفته في نفس أوليفيه أنها في تلك الفترة كانت تتألم من معاكسات بعض الرجال لها . فعند عودتها إلى المنزل في المساء والليل يسدل أستاره ، خاصة عندما كانت تضطر للخروج بعد العشاء لإحضار الأوراق التي تقوم بنسخها أو إعادتها ، كانت تشعر باضطراب شديد عندما يدنو منها بعض الرجال أو يتابعونها أو يلقون على مسامعها عروضاً فظة ، كانت تصطحب أختها كلما أمكنه ذلك بحجة حضه على النظافة ، ولكنه لم يكن يوافقها بسهولة ، وكانت لا تجرؤ على الإلحاح ؛ لأنها لم تكن تريد إقلاقه في عمله . ولم تستطع روحها الريفية الطاهرة أن تعتاد خصال العاصمة ؛ إذ أن باريس كانت ليلاً بالنسبة لها كغابة فيها الوحوش الدنسة التي تطاردها ، فكانت ترتعد خوفاً للخروج من مخبئها ، ولكنها كانت مضطرة لذلك . وكانت تتردد كثيراً قبل أن تنهي للخروج وتتألم لذلك دائماً ، وعندما كانت تفكر في أن صغيرها أوليفيه سوف يصبح أو ربما كان مثل هؤلاء الرجال الذين يطاردونها يصعب عليها عند عودتها في المساء أن تمد إليه يدها لمصافحته ، ولم يستطع أوليفيه أن يعرف سبب نفور أخته .

كانت أنطوانيت جذابة إلى درجة كبيرة دون أن تكون رائعة الجمال ، تجذب الأنظار دون أن ترغب في ذلك . كانت في لبسها غاية في البساطة ، ترتدى ملابس الحداد في أكثر الأوقات . لم تكن طويلة ، دائماً كانت نحيفة رقيقة المظهر ، قليلة الكلام ، تمرق بين الناس بدون أن يشعر بها أحد ، تهرب من الأنظار وهي تجذب الأنظار بما في عينيها المتعبتين وفمها الصغير الطاهر من عذوبة عميقة . كانت تلاحظ أحياناً إعجاب الناس بها فتخجل على شعور بالغبطة ، تعبيراً عن الدلال اللطيف العفيف الذي يمتلك النفس . كان ذلك يظهر في ارتباك بسيط في حركاتها وفي نظرة خجولة ترسلها من طرف عينيها . وكان ذلك شيئاً ساراً ومؤثراً في الوقت نفسه . هذا

الاضطراب كان يزيد من جاذبيتها . وكانت تستثير الرغبات لدرجة تجعل البعض لاينجمل من مصارحتها بذلك ، نظرا لأنها فتاة فقيرة ولا معين لها في الحياة .

كانت تذهب أحيانا لزيارة إحدى عائلات الأثرياء ، آل ناتان ، الذين أظهروا لها اهتمامهم منذ قابلوها في منزل أصدقاء لهم حيث كانت تعطى الدروس ، وبالرغم من حبها للوحدة لم تستطع أن تمتنع عن حضور سهرة أو اثنتين من سهراتهم ، كان الفريد ناتان أستاذاً معروفا في باريس وعالما جليلا ، ورجلا من رجال المجتمع في الوقت نفسه ، مما جعل منه مزيجا غريبا من العلم والمرح ، وهو شئ مألوف في هذا المجتمع . أما زوجته فكانت تجمع بنسب متساوية بين عملها الخيري الصادق وإفراطها في الاندماج في المجتمع . كان الاثنان سخيين نحو أنطوانيت فيما يظهران لها من مودة صادقة ، ولكن في غير استقرار ، فهو مجتمع لديه الفضول الدائم الذى يجعلهم يبحثون عن النفوس والأفكار النفسية ، ولايعنى ذلك أنهم يفعلون شيئا لمساعدة الآخرين ؛ إذ أن مصالح كثيرة تشغلهم في وقت واحد ، ولأن حب التظاهر متسلط عليهم أكثر من غيرهم بالرغم من ادعائهم التحرر من حب التظاهر ، وهم على الأقل يفعلون شيئا ما ، وهذا الأمر لا بأس به بالنسبة لجمود المجتمع المعاصر . فهم عنصر هام في نطاق العمل . ولم يكثر أحد من الكاثوليك بأمر أنطوانيت ، فلم تجد عندهم إلا البرود الذى يشبه حائطا ثلجيا من عدم الاكثارات ؛ ولهذا شعرت أنطوانيت بقيمة اهتمام أسرة آل ناتان بها ، وإن كان اهتماما سطحيا . أدركت السيدة ناتان حياة التضحية التى تعيشها أنطوانيت ، وشعرت بما لهذه الفتاة من جاذبية في مظهرها وطبيعتها ؛ ولهذا حاولت أن تفرض عليها حمايتها ، لم يكن عندها أولاد ، وكانت تحب الشباب ، وكثيرا ما كانت تجمع عندها شبانا وشابات ،

وقد ألحت على أنطوانيت لتقوم بزيارتها هي أيضا ؛ كي تخرج من عزلتها وتلهو قليلا ، ولما كان من السهل عليها إدراك سبب شعور أنطوانيت بالوحشة وأنه إنما يرجع جزئيا إلى ضيقها المالى ، أرادت أن تقدم إليها بعض الملابس الجميلة . إلا أن كبرياء أنطوانيت أبى عليها ذلك فرفضت ، ولكن هذه السيدة الفاضلة المحبة اتخذت مسلكا آخر أدى إلى إجبار أنطوانيت على قبول بعض تلك الهدايا الصغيرة غالية الثمن . إزاء ذلك كانت أنطوانيت تشعر بعرفان الجميل والخجل ، فتحاول جاهدة أن تحضر سهرات السيدة ناتان ولو من حين إلى آخر ، وبحكم شبابه كانت تجد في ذلك بعض اللذة .

في هذا المجتمع الذى يخلط بين الناس ، حيث يتقابل شبان كثيرون ، أصبحت الفتاة الصغيرة البائسة الجميلة التى ترعاها السيدة ناتان هدفا لاثنين أو ثلاثة من الشبان الطائشين ، حاولوا أن يوقعوها في شباكهم وطمعوا فيها معتمدين على خجلها حتى وصل بهم الأمر إلى التراهن .

وبدأت ترد إلى أنطوانيت خطابات مجهولة أو موقعة بأسماء مستعارة رنانة تصارحها بالحب ، كانت في البداية خطابات غرامية فيها التملق والإحاح ، فيضرب فيها مرسلها موعدا للقاء ، وسرعان ما أصبحت تلك الخطابات أكثر جرأة . أخذت تستخدم التهديد ثم السب ثم النيمة ، خطابات تجردها من ثيابها ، وتسرد أسرار جسدها بالتفصيل وتلوثه بشهواتها الدنيئة . تسعى إلى استغلال سداجة أنطوانيت مهددة إياها بفضيحة علنية إن لم تحضر في الموعد المحدد ، كانت تبكى ألما كلما شعرت أنها جلبت لنفسها عروضا حقيرة كهذه ، كانت تلك الإهانات تحرق كبرياءها جسدا وروحا ، ولكنها لاتدرى كيف تخرج من هذا المأزق . لم تشأ أن تفتح أحاسها في هذا الموضوع ، فكانت تعلم أنه سيتألم كثيرا وأنه سيجعل المسألة تتخذ شكلا

أكثر خطورة ، لم يكن له أصدقاء ، فهل تلجأ إلى البوليس ؟ كانت ترفض ذلك خوفاً من الفضيحة ، ومع ذلك كان لابد من إيجاد حل لهذا الموقف ، وقد شعرت أن سكوتها لا يكفي لحمايتها ، وأن الشقى الذى يطاردها سوف يكون عنيدا فى موقفه ، وأنه سوف يصل إلى اقصى حد من الاستهتار ، ولن يتراجع إلا إذا وجد إنه سيقع فى خطر . بعث إليها برسالة كإنداز نهائى يأمرها بالذهاب إلى متحف لوكسمبرج فى الغد فذهبت . كانت قد اقتنعت بعد أن أرهقت ذهنها فى التفكير أن هذا الشخص الذى يضطهدها لابد أن يكون قد قابلها عند السيدة ناتان ؛ إذ أنه أشار فى إحدى رسائله إلى أمر من المرجح أن يكون قد حدث هناك .

توسلت إلى السيدة ناتان طالبة منها أن تؤدى لها خدمة كبيرة ، وهى أن ترافقها بعربة حتى باب المتحف وتنتظرها لحظة هناك . فذهبتا ودخلت أنطوانيت المتحف ، وعندما وصلت أمام اللوحة المتفق عليها اقرب منها الفتى الذى كان يهددها برسائله تعلوه علامات الانتصار ، وبدأ يتحدثها فى ذوق مصطنع ، فحدقت فيه النظر دون أن تنطق بكلمة ، وعندما انتهى من حديثه سألتها مازحا : لماذا تفحصه هكذا فأجابت :

- إنى أنظر إلى جبان .

ولم يضطرب لمجرد هذا التوبيخ ، وبدأ يكلمها بدون كلمة ، فقالت له :

- أردت أن تهددنى بفضيحة فجئت لأقدمها إليك ، أترغب فى ذلك ؟

كانت ترتعد وهى تتكلم بصوت مرتفع ، وكان ممكنا أن يلفت إليها الأنظار ، وكان الناس ينظرون إليها فعلا ، وشعر الشاب أنها لم تتراجع أمام أى شىء فخفض من صوته ، فرمته مرة أخيرة بقولها :

- أنت جبان . .

وأدارت له ظهرها ، فتبعها كى لا يظهر فى صورة المنهزم ، خرجت أنطوانيت من المتحف والرجل يسير على أعقابها ، واتجهت نحو العربة التى كانت تنتظرها ، وفتحت الباب على حين غرة فوجد الشخص نفسه وجها لوجه أمام السيدة ناتان التى عرفته وحيته باسمه . فاضطرب واختفى عن الأنظار .

واضطرت أنطوانيت أن تروى لرفيقتها قصة هذا الشخصى ، رغم أنها لم تفعل ذلك بدون أسف وتحفظ شديد ؛ إذ أنه كان من الصعب عليها أن تطلع سيدة غريبة على سر آلامها الناتجة عن حياتها الجريح ، فأخذتها السيدة ناتان لأنها لم تنبها فى بادئ الأمر ، وتوسلت إليها أنطوانيت ألا تروى هذه القصة لأحد ، وانتهى الحادث عند هذا الحد ، ولم تكن صديقة أنطوانيت بحاجة إلى غلق باب منزلها فى وجه هذا الشخص ؛ إذ أنه لم يعد بعد ذلك أبدا .

فى هذا الوقت تقريبا تأملت أنطوانيت ألما من نوع آخر . فقد ظهر رجل فى الأربعين من عمره ، يشغل منصب قنصل فى الشرق الأقصى عاد إلى فرنسا فى إجازة بضعة أشهر ، قابل أنطوانيت عند أسرة ناتان وأغرم بها ، وأعدت ناتان هذه المقابلة دون علم أنطوانيت ؛ إذ قررت فى نفسها أن تتوسط فى زواج صديقتها الصغيرة ، كان يهوديا ، ولم يكن جميلا ، بل كان أصلع قليلا ومنحنى الظهر ، ولكن كانت له نظرة طيبة ، وكان مخلصا فى معاملاته مع الناس ، وله قلب يرثى لآلام الغير ؛ إذ كان هو نفسه قد قاسى الكثير . لم تعد أنطوانيت هذه الفتاة الصغيرة الخيالية ، هذه الطفلة المدللة التى تتخيل الحياة كأنها نزهة مع الشخص الحبيب فى ذات يوم جميل ، ولكنها كانت تنظر إلى الحياة الآن وكأنها معركة عنيفة يجب على المرء أن يستأنفها كل يوم دون كلل ، وإلا فقد فى لحظة واحدة كل الأرض التى اكتسبها حثيثا بعد سنوات

كلها تعب . وأخذت أنطوانيت تصور لنفسها كم يكون عذبا أن تتكىء على ذراع صديق يشاركها في متاعبها، وتستطيع أن تغمض عينها قليلا و هو ساهر عليها . كانت علي يقين من أن هذا كان حلما ، ولكنها لم تجد بعد الشجاعة الكافية لتودع ذلك الحلم نهائيا ، والحقيقة أن أنطوانيت لم تكن تجهل أن الفتاة التي لا تملك مهرا ليس من حقها أن تأمل شيئا في المحيط الذى تعيش فيه ؛ فالطبقة البورجوازية الفرنسية العتيقة معروفة في العالم كله بالعقلية المادية الدنيئة التي تواجه بها مسائل الزواج . هؤلاء البورجوازيون يفوقون اليهود أنفسهم في شغفهم الدنيء بالمال . فكثيرا ما يختار شاب يهودى ثرى فتاة فقيرة شريكة لحياته . أو أن فتاة غنية تبحث بلهفة عن رجل مفرط في ذكائه ، أما عن البورجوازيين الكاثوليك الريفيين فإن كيس النقود يبحث عن كيس النقود . مع أن احتياجات هؤلاء البؤساء تافهة، فهم لا يعرفون سوى الأكل والثأوب والنوم والادخار . كانت أنطوانيت تعرفهم جيدا ؛ فقد رأتهم منذ طفولتها بمنظار الثراء كما رأتهم بمنظار الفقر ، ولم تعد تتوهم ان في استطاعتها الاعتماد عليهم ؛ لذلك شعرت بسرور عميق غير منتظر عندما تقدم لها هذا الرجل طالبا يدها ، ومع أنه لم تشعر نحوه بالحب في بادىء الأمر فإنها أخذت تشعر إزاءه بحنان عميق وبعرفان للجميل . ومع ذلك رفضت طلبه ، وما كان لها أن ترفض لولا أنه كان لزاما عليها أن تتبعه إلى المستعمرات وأن تترك أختها . وأدرك هذا الصديق سمو الأسباب التي دفعتها إلى الرفض ، إلا أنه لم يغفر لها ، فالحب أنانى يطلب من الحبيب أن يضحى من أجله بكل شيء حتى أجمل الصفات التي يتحلى بها ، ولا يقبل منه دون ذلك . وامتنع الرجل عن رؤيتها ولم يرأسلها بعد سفره، وانقطعت أخباره عنها حتى أرسل إليها يوما - بعد خمسة أو ستة شهور - دعوة مكتوبة بخط يده تنبئها بزواجه من امرأة أخرى !

اكتأبت أنطوانيت كثيرا لهذا النبأ ، وامتلاً قلبها بالحسرة مرة أخرى ونذرت
آلامها لله ، أرادت أن تقنع نفسها بأنها تستحق العقاب الذى نزل بها ؛ لأنها
نسيت ولو للحظة مهمتها الوحيدة ، التضحية من أجل أخيها . ولم تعد
تفكر فى غير تلك المهمة

اعتزلت أنطوانيت العالم وانقطعت عن زيارة آل ناتان الذين أظهروا
نحوها فتورا منذ رفضت العريس الذى قدموه لها ، هم أيضا لم يقتنعوا
بأسباب رفضها . جرح كبرياء السيدة ناتان ألا يتم هذا الزواج بسبب
أنطوانيت . وكانت قد قررت بداية أنه سيتم وأنه سيكون موفقا تماما تماما .
لم تكن تشك فى أن لدى أنطوانيت أسبابا وجيهة للرفض ، وإن كانت أسبابا
عاطفية مبالغا فيها ، وبين عشية وضحاها تخلت عن هذه الفتاة المليئة
بالكبرياء فى نظرها وانشغلت عنها ؛ إذ أن رغبتها الملحة فى تقديم المساعدة
للناس سواء أرادوا ذلك أم لا وفقتها لاختيار فتاة أخرى بسطت عليها
حمايتها، فاستنفدت كل ماكان فى استطاعة السيدة ناتان أن تقدمه من
إخلاص واهتمام لإنسان ما .

الفصل الثالث

عبدالله بن مسعود



كان أوليفيه مجهل تماما الأحداث المؤلمة التي اتخذت قلب أنطوانيت مسرحا لها . فقد كان حبيبا طائشا يعيش في الأحلام ، ومن العبث الاعتماد عليه في شيء ، رغم تفكيره وعقله الملىء بالحياة وقلبه الذي يتدفق منه الحنان مثلما يتدفق من قلب انطوانيت ، أما مجهوداته التي تستمر شهورا متتالية فقد كانت معرضة للضياع نتيجة لأعمال تافهة أو نتيجة لتكاسل أو يأس أو حب خيالي يستنفد كل وقته وقواه . كان يعشق من يصادف من فتيات جميلات أو يغرم بفتيات صغيرات مدلمات لم يتحدث معهن أكثر من مرة في مجتمع ما ، رغم أنهم لا يعرّفونه أى اهتمام ، وكثيرا ما عشق كتابا أو قصيدة أو لحنا فأغرق نفسه فيه شهورا طويلة على حساب دراسته . وكان على أنطوانيت أن تراقبه دون ملل وفي حذر شديد حتى لا ينتبه إلى ذلك وحتى لا تجرح شعوره ، وكانت تحشى دائما أن يتهور في تصرفاته ، فقد كان محموما دائما متلهفا لكل شيء ، غير متزن ، يسارع إلى الأمور بقلق بالغ كما يفعل الذين يترقبهم مرض السل . ولم يخف الطبيب عن أنطوانيت مدى ما في ذلك من خطورة ، فأوليفيه كان بطبيعته كالنبات الهزيل الذى نقل من موطنه الأصلي إلى باريس . في حين أنه في حاجة إلى الضوء والهواء النقي . ولكن أنطوانيت لم تستطع أن توفر له ذلك ، فلم يكن لديها من المال ما يسمح لها بالابتعاد عن باريس أثناء العطلة الصيفية . وفي باقى أيام السنة كانا ينهماكان في أعمالهما طوال الأسبوع ،

ويبلغ منها التعب أشده أيام الأحاد فلا يجدان ميلا إلى الخروج من المنزل إلا إذا كانت هناك حفلات موسيقية .

ومع ذلك ففي بعض آحاد الصيف كانت أنطوانيت تغالب نفسها وتصطحب أباها إلى الغابات المجاورة لباريس من ناحية شافيل أو سان كلو، ولكن تلك الغابات تكون عادة مليئة برجال يصطحبون النساء وسط الضجيج والغناء الشعبي والأورا الملوثة الملقاة على الأرض . فلا يجدان وسط كل هذا ما يشدان من قدسية الوحدة التي تريح النفس وتنقيها ، ويعودان في المساء في فوضى القطارات المزدهمة حيث يتكدر الناس في جو خانق داخل عربات الضواحي المخجلة الواطئة . كانت هناك ضوضاء وضحك وغناء وإباحية ورائحة كريهة تمتزج بدخان التبغ . ويعود أوليفيه وأنطوانيت من هذه الرحلة متأففين وقد فقدوا روحيهما المعنوية النافرتين من تلك المظاهر الشعبية . ويتسل أوليفيه إلى أخته ألا تعود إلى تلك الزهات ، ولا تجد أنطوانيت في نفسها الرغبة في تكرارها قبل أن يمضى وقت طويل . ومع ذلك - ورغم كراهيتها لهذه الزهات التي تفوق كراهيه أوليفيه لها - كانت تعتقد أنها ضرورية لصحة أخيها فترغمه أن يعود إليها ، ولكن التجارب الجديدة لم تكن أسعد من الأولى ويؤنبها أوليفيه على ذلك في شدة، ويظنان محبوسين في المدينة الخائفة ومن ساحة سجنهما كانا يتوقان إلى الحقول .

وصل أوليفيه في دراسته إلى المرحلة النهائية ، وكان عليه أن يؤدي في نهاية ذلك امتحان مدرسة المعلمين العليا ، حان الوقت فعلا لانتهاء من هذه الدراسة شعرت أنطوانيت بوطأة التعب . كانت تعتقد أن شقيقها سينجح ؛ إذ أن الظروف جميعا تهيئه للنجاح ، فكان من الطلبة الممتازين في الليسيه بإجماع المدرسين على تقدير أعماله وذكائه لولا أن التفكير المنظم كان

ينقصه ، مما جعل من الصعب عليه إخضاع فكره لأية خطة ثابتة ، ولكن شعور أوليفيه بالمسئولية الملقاه على عاتقه كان يرهقه إلى درجة أخذت تفقده القدرة على العمل كلما اقترب موعد الامتحان ، بل إن التعب المضنى والخوف من الرسوب وخجله الذى أصبح كالمرض بالنسبة إليه ، فيشل تفكيره قبل الامتحان . كان يرتعد لمجرد التفكير فى أنه سيقف بين يدي ممتحنه ، وكم سبب له خجله من عذاب ، كان وجهه يحمر خجلا ويكاد يخنق عندما يأتى دوره ليتكلم ، وكان لايجب إلا بصعوبة فى بادىء الأمر ، إذا نودى اسمه ، وكان السهل عليه أن يجيب عن سؤال فجائى أكثر مما لو كان يعرف أن ثمة سؤالا سيلقى عليه ، وهنا يصبح كالمرضى ولاينقطع ذهنه عن التفكير مهيتا له كل ماسيحدث بالتفصيل ، وكلما طال انتظاره ازداد به التفكير . وليس هناك امتحان إلا وأداه على الأقل فى الأحلام فى الليالى السابقة للامتحان حيث يستنفد كل نشاطه ، وهكذا لايتبقى لايتبقى من نشاطه شىء للامتحان الفعلى .

على أنه لم يستطع مجرد الوصول إلى تأدية الامتحان الشفهى المخيف الذى كان العرق يتصبب منه اثناء الليل لمجرد التفكير فيه ، ففى امتحان الفلسفة التحريرى عجز أوليفيه عن أن يكتب ولو صفحتين فى ست ساعات مع أن تلك المادة كانت جديرة باستهوائه فى ظروف عادية أخرى . كان ذهنه خاويا طوال الساعات الأولى من الامتحان ، لم يفكر فى شىء أى شىء على الإطلاق وخيل إليه أن أمامه حائط أسود يصطدم به كلما حاول التفكير . وتشقق هذا الحائط قبل انتهاء الوقت المحدد للامتحان بساعة واحدة وتدفقت من هذا الحائط إشعاعات من النور . وتمكن أوليفيه من كتابة بعض السطور الممتازة ، ولكنها لا تكفى لنجاحه . ورأت أنطوانيت علامات الانهيار على وجه أخيها ، فأدركت أنه راسب لا محالة ، وشعرت

باليأس مثله ، ولكنها لم تظهر له شيئاً ، فقد كان لديها قدرة على الاحتفاظ بالأمل في أشد الظروف يأساً .

ورسب أوليفيه في المسابقة !

أما أنطوانيت فكانت تتظاهر بالابتسام كما لو كان الأمر غير ذي أهمية ، ولكن شفيتها كانتا ترتعدان ، وأخذت تواسى شقيقها قائلة له : إنه من السهل عليه تعويض مانع عن سوء الحظ ، وإنه سينجح دون شك في العام التالي وبترتيب أفضل . ولم تقل له : كم كان يهمها أن ينجح في ذلك العام ، ولا كيف تشعر بجسدها وروحها يضمحلان لخشيتها ألا تتمكن من احتمال عام آخر كالذى انقضى ، ولكن الضرورة كانت تحتم عليها أن تحتمل ، فلو أنها اختفت قبل أن ينجح أوليفيه لما وجد الشجاعة الكافية للاستمرار في كفاحه وحده ، سوف تفرسه الحياة .

لذلك أخفت أنطوانيت عن أخيها أعباءها ، وضاعفت جهودها وتفانت ؛ لتوفر له بعض التسلية أثناء العطلة الصيفية ، حتى يعاود العمل بقوة جديدة في بدء العام الدراسي ، ولما حان الوقت وجدت أنطوانيت أن القليل من المال الذى ادخرته قد نفذ ، علاوة على أنها فقدت أكثر الدروس التى كانت تعود عليها بفائدة كبيرة .

ومضى عام آخر وتوترت أعصاب أنطوانيت وشقيقها أمام الامتحان النهائى وكادت تتحطم . كان عليهما قبل كل شيء أن يعيشا أن يبحثا عن سبل أخرى للعيش . فقبلت أنطوانيت وظيفة مدرسة لأسرة في ألمانيا حصلت عليها بفضل أصدقائها من آل ناتان كان ذلك اخر حل تود أن تلجأ إليه ؛ إذ لم يكن ثمة حل اخر في ذلك الحين ، ولم تعد تستطيع الانتظار ، فمنذ ست سنوات وهى لم تفارق شقيقها يوماً واحداً . وأصبحت لاتتصور كيف تعيش الآن دون أن تراه أو تستمع إليه . وكلما فكر أوليفيه في

ذلك الأمر شعر بالفرح ، ولكنه لم يجرؤ على الكلام . إنه هو السبب في هذا الشقاء ، فلو أنه نجح لما اضطرت أنطوانيت أن تلجأ إلى مثل تلك الحلول . ولم يعد من حقه أن يعترض على هذا الحل الذي ارتأته أخته . كان على أنطوانيت أن تقرر الأمور وحدها . قضى الشقيقان الأيام التي تسبق سفر أنطوانيت في ألم صامت كما لو كان أحدهما على وشك الموت ، وكلما اشتدت وطأة الألم على واحد منهما كان ينعزل عن الآخر ويختبئ ، فهي تنظر إلى شقيقها تستقى النصيحة من نظراته . لو أنه قال - لا ترحلى . . .

لعدلت عن سفرها رغم شدة ضرورته . وحتى اللحظات الأخيرة وهما في العربة التي أقلتها إلى محطة الشرق كانت أنطوانيت على استعداد لأن تعدل عن قرارها ، إلا أنها لم تجد في نفسها القوة الكافية للتنفيذ ، انتظرت كلمة من شقيقها ، كلمة واحدة ، ولكنه لم يتفوه بها . كان هو الآخر يتجلد مثلها . وطلبت منه أن يعدها بالكتابة إليها يوميا ، وألا يخفى عنها شيئا ، وأن يدعوها إليه فورا إذا ما طرأ أدنى شيء .

رحلت أنطوانيت . وعاد أوليفيه حزينا إلى عبر النوم في الليسيه ، حيث قبل الالتحاق بالقسم الداخلى ، فيما كان القطار يحمل أنطوانيت التي بدا عليها الألم وأخذت ترتعش من البرد . لم يغمض لأكليهما جفن طوال الليل ، إذ كان كل منهما يشعر بأن كل دقيقة تمر به تبعده عن الآخر ، وأخذ يتناجيان بصوت خافت .

كانت أنطوانيت تشعر بخوف من الحياة الجديدة التي تقبل عليها . لقد تغيرت كثيرا في السنوات الست الماضية ، كانت فيما مضى من الشجاعة بحيث لا يرهبها شيء ، ثم تعودت السكون والوحدة لدرجة جعلتها تتألم

كلما اضطرت إلى أن تحيد عن ذلك . أنطوانيت الضاحكة ، الثرارة ، المرحة أثناء الأيام السعيدة التي انقضت وانقضت معها حياتها ، لقد جعل منها البؤس فتاة برية ، ولاشك أن عدوى الخجل قد انتقلت إليها آخر الأمر من أوليفيه . كان من الصعب عليها التحدث مع أى شخص خلاف أخيها . أصبحت تهاب كل شيء وتخاف حتى من الزيارات العادية ؛ ولذا كانت تشعر بغم شديد لمجرد التفكير فى أنها ستعيش مع أناس غرباء وتتحدث إليهم - وتكون موضع نظراتهم على الدوام . هذه الفتاة المسكينة لم يكن لديها ، كما لم يكن لدى أخيها - أى استعداد للتدريس . فكانت تؤدى واجبها بأمانة رغم أنها لم تكن تؤمن به . ثم إن شعورها بما لعملها من عدم الفائدة لم يساعدها على أداء ذلك العمل . لقد خلقت لتهب الحب للناس ، ولم تخلق للتدريس ، ولكن أحدا لم يكثر لعاطفتها .

كان منزل الأسرة التي عملت لديها فى ألمانيا آخر مكان يصلح لإظهار تلك العاطفة ؛ إذ أن أسرة جرونوم التي كلفتها بدريس اللغة الفرنسية للأطفال لم تعرها أى اهتمام . فأفراد تلك الأسرة كانوا مزيجا من الكبرياء والأنفة ، لايبالون بشيء وإن كانوا فضوليين ، كانوا يدفعون أجورا لا بأس بها ، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى من يقبض ما لهم كأن مدين لهم بالجميل ، ويعتقدون بعد ذلك أن من حقهم ان يتصرفوا معه كما يشاءون ؛ لذلك عاملوا أنطوانيت كما لو كانت خادمة ذات مستوى يعلو قليلا عن باقى الخدم . ولم يتركوا لها أى حرية تقريبا ، حتى إنها لم يكن لها غرفة خاصة بها . كانت تنام فى غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة الأطفال ، يظل بابها مفتوحا إثناء الليل . وهكذا لم تستطع ان تنفرد بنفسها من وقت لآخر ، هذا الحق المقدس فى ان ينفرد كل انسان بمشاعره الداخلية . كانت كل سعادتها ان تلتقى بأفكارها مع شقيقها ، وتحدث اليه مستغلة اللحظات التي تتمتع فيها

بالحرية ، ولكن حتى تلك اللحظات كانوا ينازعونها اياها وماتكاد تكتب كلمة واحدة حتى تجد في الغرفة من يحوم حولها ويسألها عما تكتب ، واذا ما قرأت خطابا سألوها عما فيه . وكانوا يستخبرون عن الشقيق الصغير بطريقة ودية وان لم تخل من سوء الظن والسخرية ، وكان على أنطوانيت ان تختبئ . وقد يخجل الانسان عندما يعلم الوسائل التي كات الفتاة يلجأ اليها أحيانا، وكيف كانت تجلس في أماكن منعزلة لتقرأ دون أن يراها أحد خطابات أوليفيه، ولو حدث مرة ونسيت خطابا في مكان ما بغرفتها فمما لاشك فيه أن ذلك الخطاب سيقراً حتما . ولما لم يكن لديها من الأثاث المحكم ، الذي يمكن أن تحتفظ فيه سوى حقيبتها الكبيرة ، فقد كانت مضطرة لأن تحمل معها كل ماتملك من أوراق لاترغب في أن يطلع عليها أحد . كانوا يفتشون دائما في كما كانوا دائمي البحث عما يدور في نفسها، وكانوا يبذلون جهدهم لكي يصلوا الى مافي أعماقها من أسرار ، ولم يكن ذلك اهتماما من آل جرونيوم بأمر أنطوانيت ، ولكن اعتقادا منهم أنها ملك لهم ماداموا يدفعون لها أجرا ، فهم لايفعلون ذلك عن سوء قصد ، وإنما لأن الفضول كان عادة أصيلة لديهم حتى إنهم لايشعرون لذلك بأى حرج فيما بينهم .

ولم يكن هناك شيء أصعب احتمالا على نفس أنطوانيت من هذا التجسس المستمر ، وهذا التجرد من الحياء الذي لم يكن يسمح لها بأن تهرب ولو ساعة كل يوم من أنظار الفضوليين ، ولم يلبث التحفظ والكبرياء اللذان تواجه بهما أنطوانيت آل جرونيوم أن تسببا لهم في الألم . وكانوا يجدون في المثل الأخلاقية العالية أسبابا يبررون بها فضولهم الفظ ، ويستنكرون بها رغبة أنطوانيت في أن تتحاشى ذلك . كانوا يؤمنون أن من حقهم معرفة كل شيء عن الحياة الخاصة لتلك الفتاة التي تعيش عندهم كواحدة من أفراد

الأسرة والتي وكلوا إليها أمر تربية أطفالهم ، من أجل ذلك كله فهم مسئولون عنها . وكثيرات من ربات البيوت يدعين هذه المسئولية بالنسبة لخدمهن وإن كانت هذه المسئولية تقتصر على حرمان هؤلاء المساكين من أى بهجة فى الحياة فأنها لا تجنبهم الاعمال الشاقة او الكريمة ، واستتج آل جرونيوم أن أنطوانيت لابد أن تكون مذنبه لرفضها الاعتراف بواجبهم الادبى نحوها ؛ فالفتاة الشريفة ليس لديها ما تخفيه من أسرار .

وهكذا أحيطت أنطوانيت بجو من الاضطهاد اضطرها أن تكون دائما على أهبة الاستعداد للدفاع نفسها . وزادها ذلك جمودا فى مظهرها وانطواء على نفسها يتجاوز المؤلف .

كان يصلها يوميا من أخيها خطابات لاتقل صفحاتها عن اثنتى عشرة ، وتمكنت من الرد على كل خطاب ولو بيضعة سطور . وحاول أوليفيه أن يبدو شجاعا وأن يخفى ما استطاع من ألمه ، ولكن الملل كاد يقتله ؛ إذ أن حياته كانت مرتبطة بحياة شقيقته لدرجة جعلته يشعر بأنه فقد نصف كيانه بعد أن افترق عنها . لم يعد يعرف كيف يستعمل فكره أو حتى ذراعيه وساقيه ، لم يعد يعرف كيف يتنزه او كيف يعزف على البيانو ، لم يعد يعرف كيف يعمل أو كيف لايعمل ، ولم يعد يرى فى أحلامه شيئا سوى أخته . فأخذ ينكب على كتبه من الصباح حتى المساء ، ولكن دون أية فائدة ؛ إذ أن فكره كان بعيدا . كان يتعذب فى نفسه عندما يفكر فى أخته وفى رسائل الأمس ، ويظل يحرق فى ساعة الحائط منتظرا الرسالة التالية التى مايكاد يتسلمها حتى ترتعد أصابعه فرحا وخوفا أيضا وهى تمزق الغلاف . لم يحدث قط لحبيب تسلم من حبيب له رسالة فاضطرب حنانا وقلقا مثلما حدث لأوليفيه ، كان يتوارى كما كانت تفعل أخته ليقراً رسائلها التى يحتفظ بها دائما معه . وكان إذا جاء الليل يضع آخر رسالة تصله منها تحت وسادته

ويظل يتفقددها من وقت لآخر؛ ليطمئن عليها في ساعات الأرق الطويلة التي يداعب خياله فيها ظل أخته العزيزة . كم كان يشعر بوطأة البعد عنه ، وكانت نفسه تنقبض بوجه خاص إذا ما تأخر البريد في حمل رسالة أنطوانيت إليه فلا تصله إلا بعد مضي يومين من إرسالها . ما أطول اليومين والليلتين بينهما! كان يبالي في طول الوقت والمسافة التي تفصل أحدهما عن الآخر ، لا سيما وأنه لم يسافر من قبل . كان خياله دائب العمل فهو يقول لنفسه : يا الهى ، ما العمل إذا مرضت ؟ إنه لم يحتمل أن تموت قبل أن يمكنه رؤيتها ، لماذا لم تكتب إليه إلا بضعة أسطر في اليوم السابق ؟ هل كانت مريضة ؟ وعندئذ يكاد يتخنتق أوليفيه وكان التفكير يذهب به أكثر من ذلك إلى الفزع خوفا من أن يموت بعيدا عن شقيقته وهو وحيد وسط زملائه الذين لا يكثرثون بأمره ، وفي هذه الليسية التي تشمئز منها النفس ، وفي باريس الكئيبة ، كان يفكر كثيرا في هذا الاحتمال حتى يمرض فعلا فيتساءل : هل يكتب إليها لكي تعود ؟ ولكن سرعان ما كان يخجله هذا الجبن . فما إن يشرع في الكتابة حتى يشعر بسعادة في التحدث إليها تجعله ينسى لمدة قصيرة آلامه ، وكان يخيل إليه أنه يراها ويستمتع إليها ، فيروى لها كل شيء في خطاباته . لم يحدث أبدا عندما كانا معا أن حدثها بمثل هذه المودة الصادقة وبمثل هذه العاطفة التي تجعله يناديها : شقيقتى المخلصة الشجاعة ، شقيقتى الصغيرة الحبيبة الطيبة التي أحبها حبا جما . كانت رسائل غرامية حقا .

كانت خطابات أوليفيه هذه تغمر أنطوانيت بحنانها المتدفق ، فكانت النسيم تستنشقه الفتاة طوال يومها ، وإذا ماتأخرت في الصباح عن الميعاد المنتظر ظهر عليها البؤس . وحدث أن آل جرنيوم تأخروا مرتين أو ثلاثا حتى المساء في تسليمها خطابات أخيها ، وكان ذلك عن عدم اكتراث أو ربما عن

سوء قصد ، وفي مرة أخرى أخرج الخطاب حتى اليوم التالى فانتابت أنطوانيت الحمى . وفي يوم رأس السنة خطرت لهما ، هما الاثنين ، فكرة واحدة دون أن يتفقا عليها ، ففاجأ كل منهما الآخر ببرقية مطولة كلفتها الكثير ، ووصلت إليهما فى ساعة واحدة . كان أوليفيه مستمرا فى استشارته لأنطوانيت فيما يختص بأشغاله ، وما يعتريه من قلق ، فتسدى إليه أنطوانيت النصيح وتسانده وتبث فيه قوتها .

ولكن أنطوانيت كانت هى نفسها فى حاجة إلى القوة ؛ إذ كادت تخنق فى هذا البلد الغريب حيث لاتعرف أحدا ولايهتم بأمرها أحد ، إلا زوجة لأحد المدرسين جاءت أخيرا للإقامة بتلك المدينة ، وكانت هى أيضا تشعر بالغربة ، وأحست هذه السيدة الكريمة بشيء من حنان الأم ، وتأثرت لألم هذين الشقيقين الصغيرين اللذين افترقا رغم حبهما الشديد . وقد نجحت فى أن تنتزع من أنطوانيت جزءا من قصتها ، ولكن هذه السيدة كانت تحب الضحيج وتتصرف بطريقة عامية ، تنقصها اللباقة والرزانة ، إلى حد جعل أنطوانيت ذات الإحساس المرهف تنطوى على نفسها ؛ لذلك لم تتمكن الفتاة من أن تبوح بما فى قلبها لأحد ، وأخذت تكتم همومها ، فتشعر بين الحين والحين بأنها قد أوشتكت على السقوط تحت هذا العبء الثقيل ، ولكنها كانت تعض على شفتيها وتستأنف السير . وساءت صحتها فانتابها هزال شديد . كانت خطابات أوليفيه تزداد يأسا . وفى أزمة من الضيق كتب إليها قائلا :

- عودى ، عودى ، عودى !

وما كاد يرسل هذا الخطاب حتى شعر بالخنجل من نفسه ، فكتب خطابا آخر يرجو فيه من أخته أن تمزق الخطاب الأول ولا تفكر فيه ، وادعى المرح ،

وأنه لم يعد في حاجة إلى شقيقته . كان يجرح كبرياءه أن يعتقد أحد أنه لا يستطيع الاستغناء عن أخته .

ولكن أنطوانيت كانت تدرّك أمر أوليفيه تماما ، فكانت تقرأ ما يدور في ذهنه دون أن تدرى مات فعل . وفي أحد الأيام أوشكت على العودة ، فذهبت إلى المحطة لتستفسر عن موعد قيام قطار باريس بالضبط ، ولكن سرعان ما قالت لنفسها : إن هذا ضرب من الجنون ، فإن النقود التي تحصل عليها تسمح لها بدفع مصاريف أوليفيه المدرسية وإنه طالما استطاعا الاحتمال وجب عليها الثبات ، ولم يعد لأنطوانيت ما يلزمها من حزم لاتخاذ أى قرار ، كانت تعود إليها في الصباح شجاعته الفاتكة ، ولكن حين يقترب منها ظل المساء كانت تخور قواها فتفكر في الهرب ، كانت تشعر بالحنين إلى وطنها ، هذا الوطن الذي طالما كان قاسيا ، ولكن مع ذلك ينطوى على كل ما كانت تقدسه في ماضيها ، كانت تنوق إلى اللغة التي يتحدث بها شقيقها ، والتي كانت تعبر بها عن حبها له .

وحدث أن مرت بالبلدة الألمانية الصغيرة فرقة من الممثلين الفرنسيين ، ومع أن أنطوانيت لم تذهب إلى المسرح إلا نادرا ؛ إذ لم يكن لديها الوقت ولا الميل لذلك ، فقد شعرت بحاجة ملحة للذهاب إلى المسرح لتستمع إلى من يتكلمون بلغتها ، ولتلجأ فترة قصيرة إلى فرنسا . فوجدت الأماكن قد نفدت ، فقابلت الموسيقار الشاب جان كريستوف الذى أشاع الثرثرة في المدينة الصغيرة ، وسرعان ما وصلت الشائعات إلى أسماع آل جرونيوم المستعدين لتصديق كل ما يشاع عن تلك الفتاة الفرنسية . وكانوا من جهة أخرى شديدي السخط على كريستوف ، فاستغنوا عن خدمات أنطوانيت في جفاء .

أما هذه الفتاة البريئة ، ذات النفس المرهفة الخجول ، التي ملك عليها

حبها لأخيها كل حواسها والتي لم يلحق بها أى دنس فكري - فكادت تموت
خجلا عندما أدركت معنى الاتهامات الموجهة إليها ، ولم تتحامل لحظة
واحدة على كريستوف ، فهي تعلم أنه برىء مثلها ، فإذا كان قد تسبب لها
في أذى فلقد أراد لها خيرا فكانت تحفظ له الجميل ، لم تكن تعرف عنه أى
شئ سوى أنه موسيقار ، وأنه موضع انتقادات شديدة ، ورغم جهلها بما
تنطوى عليه حياة الرجل فلقد كان لديها شعور فطري ، أرهقه البؤس ينبئها
بما في النفوس ، وقد لاحظت أن هذا الشخص الذى جاورها في المسرح قد
ينقصه شئ من التربية ، وقد يكون شاذا إلى حد ما ، ولكنه كان على
سداجة تماثل سداجتها ، فيه رجولة مصحوبة بحنان . كانت أنطوانيت
تشعر بالارتياح كلما تذكرت هذه الصفات . وكل ما سمعته من سوء عن
كريستوف لم يؤثر في ثققتها به ، فقد شعرت أنها أمام ضحية أخرى ، يتألم
مثلها منذ زمن بعيد؛ نتيجة لشرور من يفترون عليه . ولما كانت قد اعتادت
أن تغفل عن أمورها في سبيل التفكير في الغير فقد شغلتها إلى حد ما فكرة
آلام كريستوف عن آلامها هي . وما كان لأنطوانيت أن تسعى بأى حال لأن
تلتقى به مرة أخرى أو أن تكتب إليه ، تمنعها من ذلك طبيعتها التي تجمع
بين الحياء والكبرياء ، وقدرت أن كريستوف يجهل الأذى الذى سببه لها ،
وتمنت بطيبة قلبها أن يجهل ذلك .

رحلت أنطوانيت ، وشاء القدر أن يتقابل القطار الذى أفلها بعد ساعة
من تركه المدينة مع قطار كريستوف العائد من مدينة مجاورة كان قد قضى بها
يومه . وتقابلت نظراتهما في سكون الليل ، عندما توقفت عربتهما بضع
دقائق جنبا إلى جنب . لكنهما لم يتكلما ، وما كان في وسعها أن يتبادلا غير
الكلام العادى . هذا الكلام العادى الذى يحتمل أن يغض من قداسة
شعورهما الغامض بالشفقة المتبادلة والاستلطاف الخفى . هذا الشعور

المجهول الذى نشأ بينهما والذى لم يكن يرتكز إلا على إحساس داخلى قوى .
فى هذه اللحظة الأخيرة وعندما كانا لا يعرف أحدهما الآخر ، تبادلنا
النظرات ، ورأى كل منهما فى الآخر صورة تختلف تماما عن تلك التى يراها
فيهما كل من يعيشون معها . إن كل شىء يمر : ذكرى الكلام والقبلات
وتعانق الأجساد الحبيبة ، ولكن ذكرى الأرواح التى التقت وتعازفت وسط
حشد من الأشياء الزائلة لا تمحى أبدا . هذه الذكرى كانت أنطوانيت قد
حملتها معها ضمن أسرار قلبها الذى غمرته الأحزان ، تلك الأحزان التى بدأ
يظهر من خلالها ضوء خفى مثل النور الذى تسبح فيه جنة أورفيه التى
تتحدث عنها الأساطير .

التقت أنطوانيت بأوليفيه . كان الوقت قد حان لأن تعود ؛ إذ أن أوليفيه
كان مريضا . هذا الفتى العصبى المضطرب الذى كان يرتجف لمجرد فكرة
المرض ويرفض - وهو فى أشد حالات الألم - أن يكتب لأخته خشية أن
يقلقها ، ولكنه كان يناديها فى سره ويتوسل إليها أن تعود كما لو كانت معجزة
من السماء .

وتحققت المعجزة ! كان طريح الفراش فى مستشفى الليسيه محموما ،
غارقا فى أحلامه ، ولم يصرخ حين رأى أنطوانيت ، فكم رآها فى الأوهام
وهى تعود إليه ، ولكنه رفع قامته من على الفراش وفغر فاه وهو يرتعد خوفا
من أن يكون ذلك وهما جديدا ، ولما جلست أنطوانيت إلى جانبه على السرير
واحتوته بين ذراعيها والتصق هو بصدرها وشعر بنعومة خدها تحت شفثيه
ويديها اللتين أثلجتهما ليلة السفر ، عندما تيقن أنها أخته حبيبتة ، أخذ
يبكى . وما كان فى استطاعته أن يفعل غير ذلك . إنه مازال كما كان وهو
طفل كالطير الصغير . وأخذ يضمها إليه خشية أن تفر منه مرة أخرى . كم
تغير كلاهما ! وبالمظهرهما الحزين ! ومع ذلك فماذا بهما ماداما قد التقيا ؟ !

عاد كل شيء مضيئا أمام عينيها ، المستشفى والليسيه والنهار المعتم . أمسك كل منهما بالآخر ولن يفرق بينهما شيء بعد ذلك ، وقبل أن تتكلم أنطوانيت طلب منها أوليفيه أن تقسم له أنها لن تفارقه بعد ذلك . لم يكن في حاجة إلى هذا الطلب . فهي لن ترحل أبدا ! لقد ذاقا مرارة الألم وكل منهما بعيد كل البعد عن الآخر، كانت أمها على حق عندما كانت تقول : إن أى شيء فى الدنيا أهون من الفراق ، حتى البؤس وحتى الموت يهونان بشرط أن يقسما معا .

وأسرعا واستأجرا مسكنا . كانا يودان العودة إلى مسكنهما القديم رغم رداءته لولا أنه شغل . أما المسكن الجديد فكان هو أيضا على فناء ، وكانت هناك شجرة طلع صغيرة ، لم يلبثا أن تعلقا بها كما لو كانت صديقا ريفيا سجيننا مثلها وسط شوارع المدينة . وسرعان ما استعاد أوليفيه صحته أو ما تعودا على تسميته كذلك ، فالصحة بالنسبة لأوليفيه كانت تبدو مرضا بالنسبة لشخص آخر أقوى منه ، إن رحلة أنطوانيت إلى ألمانيا كانت كثيبة ، إلا أنها عادت منها بشيء من المال وزاد دخلها من ترجمة كتاب ألماني قبل أحد الناشرين أن يطبعه لها . وابتعدت الأزمات المالية عنها مدة من الزمن . وكان ممكنا أن يسير كل شيء على مايرام إذا نجح أوليفيه فى نهاية العام . ولكن ماذا يحدث إن لم ينجح ؟

بدأ شبح الامتحان يقترّب منها بعد أن عادا يشعران بلذّة العيش معاً ، كانا يتجنبان الكلام فى هذا الموضوع ، ولكن عبثا حاولا ذلك ، فكانا دائما يعودان إليه ، ففكرة الامتحان كانت تطاردهما فى كل مكان حتى إذا حاولا الترويح عن نفسيهما ، تفقز تلك الفكرة فجأة وسط لحن من ألحان حفلاتهما الموسيقية ، حتى فى الليل يستيقظان ليجداها أمامها كالهوة العميقة . كان أوليفيه شديد الرغبة فى تخفيف آلام أخته وفى تعويضها عن شبابها الذى

ضحت به من أجله ، إلا أنه كان إلى جانب ذلك شديد الفزع من الخدمة العسكرية التي كان من المستحيل تجنبها إذا لم ينجح ، ففى ذلك الوقت كان القبول فى المدارس العليا يعفى من الخدمة العسكرية . وسواء كان على حق أم لم يكن ، فقد كان يشعر باشمئزاز خفى من هذا الاندماج الجسدى أو المعنوى ومن ذلك الانحلال الذهنى الذى يراه فى حياة الثكنات . كل ما كان لديه من أرستقراطية وطهر كان يدفعه إلى الثورة على هذا الالتزام، وربما فضل عليه الموت . وهذا الشعور يسخر منه المرء بل يزدريه باسم الأخلاق التى أصبحت دين العصر الحديث ، ولا ينكر هذا الشعور إلا الأعمى ، فليس هناك شىء أعمق من هذا الشعور بالألم ، ألم الوحدة الخلقية الجريح من اعتداء المشاعر الجماعية الغليظة .

أعيد الامتحان مرة أخرى وكاد أوليفيه ألا يؤديه ؛ لأنه كان متعبا . وكان شديد الخوف من الاضطرابات النفسية التى كان عليه أن يجتازها فى الامتحان ، وكان يخشاها لدرجة جعلته يكاد يتمنى لو مرض تماما . إلا أنه اجتاز الامتحان التحريرى بشكل مرض هذه المرة ، وكم شق عليه انتظار النتيجة . كان من التقاليد العتيقة فى بلد الثورة الفرنسية الكبرى - وهى أكثر بلاد العالم تمسكا بالروتين - أن تعقد الامتحانات فى أشد أيام السنة حرارة ، فى شهر يوليو ، كما لو أنهم يتعمدون الإجهاز على هؤلاء المساكين بعد أن أثقلت كواهلهم تلك البرامج الطويلة التى قاموا بتحضيرها والتى لا يعرف واحد من ممتحنهم عشر ما فيها ، وأعلنت نتيجة البحوث الأدبية فى اليوم التالى لعيد ١٤ يوليو ، ولتلك الضوضاء الشعبية وهذا المرح الذى يبدو ثقيلًا على نفوس غير المرحين والذين هم فى حاجة إلى السكون . فأقيمت الألعاب الشعبية فى الميدان الذى يجاور منزلها ، وكانت الطلقات النارية تتلاحق ، ويرتفع عويل الخيول الخشبية التى كانت تديرها الآلات البخارية، كما

كانت تسمع صيحات الصناديق الموسيقية من الظهر حتى منتصف الليل . واستمرت هذه الضوضاء ثمانية أيام بأكملها ، ثم سمح رئيس الجمهورية ، دعاية له ، بنصف أسبوع آخر لأصحاب هذه الألعاب الصاخبة ، وما كان ذلك يكلفه شيئاً مادام لا يسمعونهم ، إلا أن أوليفيه وأنطوانيت أنهكتها الضوضاء وأخذت تدق على رأسيهما ، واضطرتها إلى إغلاق النوافذ والاختناق داخل الحجرة ، فكانا يصمان آذانها محاولين - دون جدوى - أن يهربا من شبح تلك الألحان السخيفة التي كان صريها يظل مرتفعا من الصباح حتى المساء ، والتي كانت تحترق رأسيهما كأنها ضربات سكين ، كان الشقيقان يئنان من شدة الألم .

بدأت الامتحانات الشفوية بعد إعلان نتيجة الامتحان التحريري بفترة وجيزة ، وتوسل أوليفيه إلى شقيقته ألا تحضر معه هذا الامتحان . فانتظرت بباب القاعة وكانت أكثر منه خوفاً . ولم يحدث قبل ذلك أن قال لها : إنه مطمئن إلى طريقة أدائه الامتحان قبل هذه المرة ، بل كان يشغل بالها بذكر ما قاله وما لم يقله في الامتحان . جاء يوم النتيجة النهائية ، وأعلنت أسماء الطلبة الناجحين في فناء السوربون . فلم تشأ أنطوانيت أن تترك شقيقها يذهب إليها وحده . كان كل منهما أثناء مغادرة المنزل يفكر دون أن يصرح للآخر كيف أنهما عند عودتهما إلى المنزل سيكونان على علم بالنتيجة ، وربما شعرا بالأسف على هذه اللحظات التي قضياها خائفين بالرغم مما تبقى لهما من أمل . اقتربا من السوربون فشعرا بأرجلهما تخور ، وقالت أنطوانيت لأخيها حتى التي تعودت أن تكون شجاعة :

- لا تمش مسرعا هكذا ، أرجوك .

ونظر أوليفيه إلى شقيقته التي حاولت أن تبسم ، وقال لها :

- الاتريدين الجلوس لحظة على هذا المقعد ؟

وتمنى أوليفيه ألا يكمل طريقة لولا أن شددت أنطوانيت على يده بعد لحظة وهي تقول :

- لست متعبة يا صغيرى ، لنواصل سيرنا .

ولم يهتديا إلى كشف الأسماء فى أول الأمر، فقرأا كشوفا كانت كلها خالية من اسم جنان ، وأخيرا وقع نظرهما على الاسم فلم يدركاه أولا بل أخذوا يعيدان قراءته دون أن يصدقا ما يريان . ولما تأكدا من صحة الأمر ومن أن جنان هو أوليفيه وأنه قد نجح فى الامتحان لم ينطقا بكلمة واحدة، وعادا مسرعين إلى المنزل . كانت أنطوانيت ممسكة بذراع شقيقها وبمعصمه ، أما هو فكان متكئا عليها ، كانا يعدوان وهما سائران لا يريان شيئا مما حولهما وعرضا نفسيهما للخطر وهما يعبران الطريق وكل منهما ينادى الآخر :

يا صغيرى ، يا صغيرى .

وصعدا إلى المنزل ، وكانا يثبان درجات السلم أربعا أربعا ، وما كادا يصلان إلى غرفتهما حتى تعانقا . ثم أمسكت أنطوانيت بيد شقيقها واقتادته حيث علقت صورة أبيها وأمها بجوار السرير فى أحد أركان الغرفة التى كانت عندها بمثابة المحراب ، وركعا معا أمام الصور واسترسلا فى بكاء صامت .

أعدت أنطوانيت طعاما شهيا للعشاء ، لكنهما لم يقربا منه ؛ فقد كانا لا يشعران بالرغبة فى الأكل ، ومرت بهما السهرة وأوليفيه يجلس تحت أقدامها أو على ركبتها وهي تدلله كأنه طفل صغير . كادا ألا يتكلما ، فما كانا يملكان مجرد القوة التى تجعلهما يشعران بالسعادة ، كانا قد تحطما . ورفدا فى الفراش قبل الساعة التاسعة واستغرقا فى نوم عميق .

فى اليوم التالى بدأت أنطوانيت تعانى من صداع أليم ، بالرغم من أنها

تخلصت من الهم الذى كان يثقل قلبها ، وخيل إلى أوليفيه أنه بدأ أخيرا يتنفس بحرية ، لقد أنقذ ، أنقذته أخته ، أخته التى أدت رسالتها على أكمل وجه ، أما هو فقد أثبت أنه جدير بما علقته عليه أخته من آمال ، ولأول مرة بعد سنوات طويلة استسلما للكسل ، ظلا راقدين حتى الظهر ، يتحدث كل منهما إلى الآخر من سريره ، وقد تركا باب الغرفة مفتوحا . كل منهما يرى الآخر فى مرآة كانت بالغرفة تعكس صورة وجهيهما اللذين يفيضان بالسعادة وإن بدا عليهما الانتفاخ من شدة التعب ، كانا يبتسمان ، ويتبادلان القبلات من بعيد ، ثم يغلبها النعاس من جديد فيراقب كل منهما صاحبه أثناء نومه وقد حطمتها شدة التعب ، فأصبحا لا يقويان إلا على النطق ببعض الكلمات الرقيقة القصيرة .

ظلت أنطوانيت تدخر قرشا على قرش حتى يصبح لها ولأخيها مبلغ صغير يلجأان إليه فى حالة المرض . ولم تكن بعد قد أخبرت أوليفيه بالمفاجأة التى تعدها له بهذا المبلغ . وفى اليوم الذى تلا نجاحه أبلغته أنها سيرحلان لقضاء شهر فى سويسرا مكافأة لهما على السنوات الماضية المليئة بالشقاء . ولما كان أوليفيه واثقا من قضاء ثلاث سنوات فى مدرسة المعلمين العليا على نفقة الدولة ومن الالتحاق بوظيفة بعد تخرجه فقد أصبح فى إمكانها الإسراف فى النفقات حتى ولو أدى ذلك إلى استفاد كل ما يملك من مال . واستقبل أوليفيه هذا النبأ بصيحات من الفرح ، أما أنطوانيت فكانت أسعد منه ، كانت سعيدة بنشوة أخيها وسعيدة لأنها - أخيرا - ستحظى برؤية الريف مرة أخرى ، وكانت فى شدة الشوق إليه .

شغلته استعدادات السفر بدرجة بالغة ، ولكنها كانت تسعد كل لحظاتها ، وعندما سافرا كان قد انقضى جزء من شهر أغسطس . ولما لم يكونا قد تعودا من قبل كثرة السفر فإن أوليفيه لم ينم الليلة السابقة للرحيل ،

كما أنه لم ينم في الليلة التي قضاها في القطار ، فقد خشى طوال اليوم أن يفوتها القطار . وفي المحطة أسرع في اضطراب وسط الحشود المتدفقة . ثم ركب في ديوان بالدرجة الثانية حيث جلسا وهما متضايقان ولم يجدا شيئا يستندان عليه ليناما ، وكانت هذه هي إحدى الامتيازات التي تحاول بواسطتها الشركات الفرنسية المغالية في ديمقراطيتها حرمان المسافرين الفقراء من الراحة ؛ لتتيح للأثرياء فرصة التفكير في أنهم وحدهم الذين ينعمون بالراحة ، ولم يغمض لأولييفيه جفن لحظة واحدة . لم يكن متأكدا من أن قطاره هو القطار المطلوب ، فظل يتقرب أسماء المحطات . أما أنطوانيت فكان يداعبها النعاس ، أخذت تستيقظ من حين إلى آخر ، كانت حركة الغربات تهز رأسها هذا عنيقا ، وكان أوليفيه ينظر إليها على ضوء المصباح الحزين الذي يعلو التوابيت المتجولة ، وقد أدهشه تغير ملامحها . بدت عيناها غائرتين وتركت فمها الذي يشبه فم الطفل ينفتح قليلا في ملل وسأم . كان لون بشرتها مصفرا ، كما أن تجاعيد صغيرة كانت قد أذبلت حدودها حيث بدت آثار الأيام البائسة ، أيام الحزن واليأس . وبدا عليها تأخير السفر ، ولكنها لم تشأ أن تفسد على شقيقها فرحته ؛ ولهذا أرادت أن تقنع نفسها بأن التعب هو الذي يسبب لها هذه الآلام التي لم تلبث زيارتها للريف أن تبددها . آه ! كم كانت تحشى أن تمرض أثناء الطريق وأحست أنطوانيت أن أوليفيه ينظر إليها ، فتخلصت بجهد من حالة الخمود التي كانت تخيم عليها ، ثم فتحت عينيها اللئيم ظلتا صافيتين ناصعتين تفيضان شبابا ، واللتين قد يمر فيهما من حين إلى آخر نظرة خوف لا إرادى تشبه مرور السحب فوق بركة صغيرة . وسألها أوليفيه عن حالتها بصوت خافت وقلق يملؤه الحنان . فأمسكت بيده وأكدت له أنها بخير . فكلمة عاطفية واحدة كانت كفيلا بأن تعيد إليها حيويتها . عندما بسط الفجر أضواءه الوردية فوق الريف الشاحب بين بلدة دول دي بونترلييه ظهر منظر الحقول

وهي تستيقظ والشمس الباسمة وهي تهرب مثلها من سجن الشوارع
والمنازل المتربة ودخان باريس الكثيف ، كان الضباب الخفيف يلف المراعى
التهاجة بأنفاسه البيضاء كاللبن . وكانت كل معالم الطريق تستوقف انتباه
أنطوانيت وأخيها : برج صغير لكنيسة إحدى القرى ، جدول ماء يشق
طريقه ، مجموعة من التلال ترسم خطأ أزرق يخلق الأفق البعيد ، صوت
أجراس خافتة حزينة يأتى بها النسيم من بعيد إلى أسماعهم عندما يتوقف
القطار وسط الريف الناعس ، وقطيع من الأبقار يقف في هيئة وقورة
مستسلماً للأحلام على مرتفع فوق الطريق . كل هذه الأشياء كانت تلفت
نظر أنطوانيت وكذلك أخيها ، بدا كل شىء في نظرهما جديداً ، كانا
كشجرتين جفتا تستقبلان مياه الأمطار بشغف كبير !

من الصباح كان عليهما أن يمررا بالجمارك السويسرية في محطة صغيرة
وسط الريف ، كانا يشعران بالتعب إثر ليلة سفر شاقة ، وكانا يرتعدان
قليلاً من برودة الفجر ورطوبته ، ولكن الهدوء كان سائداً ، والسماء صافية ،
وأنفاس المروج تصعد من حولها فتدرك الأبدان والألسن ثم تتغلغل في
الحناجر حتى تصل إلى داخل الصدور كأنها جدول صغير . وتناول أوليفيه
وأخته على منضدة في الخلاء فنجانا من القهوة الساخنة المنعشة الممزوجة
باللبن الدسم العذب الذى يشبع برائحة الأعشاب وزهور الحقول .

ثم ركبا بعد ذلك عربات القطار السويسرى ، وكان معبداً بطريقة حديثة
سرا لها سرور الأطفال . ولكن أنطوانيت كانت تشعر بخمول شديد ، ولم
تعرف سبباً لهذا الاضطراب الذى تملكها ، ولم تشعر إلا بقسط ضئيل من
السعادة ؛ مع أنها كانت ترى كل شىء جميلاً من حولها ومنتعاً للغاية ،
فذلك هو كل ماتمته منذ سنوات ، سفر جميل وشقيقها بجانبها وسط
الطبيعة الجميلة ، بعد أن زالت من أمامها هموم المستقبل ، ومع هذا أخذت

تلوم نفسها على هذا التفكير وترغم على الإعجاب بما تشاهد وعلى مشاركة أخيها مرحة الساذج .

وتوقفا في بلدة تون . كان عليهما أن يرحلا منها إلى الجبل في اليوم التالي ولكن حدث - وهما بالفندق أثناء الليل - أن انتابت أنطوانيت حمى شديدة مع قىء وآلام في الرأس . ولم يلبس أوليفيه أن طار عقله وقضى ليله وهو في أشد حالات القلق ، وفي الصباح كان لا بد من استدعاء الطبيب ، وكانت تلك زيارة غير منتظرة في المصاريف ، ولا هي يسيرة بالنسبة لميزانيتها المحدودة . لم تكن أنطوانيت في خطر، ولكن الطبيب وجدها في حالة إرهاق بالغة وانهايار في صحتها . لم يعد هناك أى تفكير في مواصلة الرحلة بعد ذلك ؛ فقد حذر الطبيب من القيام بشيء طول اليوم، وأفهمها أنها ربما احتاجت إلى الإقامة في تون مدة أطول، أسفا لذلك ولكنها سعيًا للتخلص من هذه الشدة بهذا الثمن البسيط بعدما ساورهما من مخاوف . وكان من الصعب عليهما أن يقطعا كل هذه المسافة ليحبسا نفسيهما في غرفة بهذا الفندق رديئة التهوية تضرب فيها الشمس المحرقة كما لو كانت بيتا زجاجيا لتربية النباتات . أبدت انطوانيت رغبتها في أن يخرج أخوها للنزهة . وخطا أوليفيه بضع خطوات خارج الفندق ورأى جبل الأربرواته الأخضر الجميل فيما ظهرت على البعد قمة بيضاء تحلق في أعلى السماء . اضطرب أوليفيه من السرور أمام هذا المنظر ، ولكنه لم يقو على التمتع بمثل هذه البهجة بمفرده ، فعاد مسرعا إلى غرفة شقيقته وقص عليها كل مارآه . ولما أبدت أنطوانيت دهشتها لعودته المبكرة وحثته على مواصلة نزهته أجابها كما كان يجيبها في الماضي عندما يعود من إحدى حفلات شاتليه الموسيقية :

لا لا ، إنها مناظر جميلة للغاية ، ويؤلمنى ألا نراها معًا .

لم يكن هذا الشعور جديدا بالنسبة إليها . كانا على يقين أنه لا بد أن

يكونا معا ليكونا فردا كاملا ، ولكن كان كل منهما يجد لذة كبيرة في أن يسمع أخاه يؤكد له ذلك . كانت هذه الكلمات الرقيقة أقوى أثرا على أنطوانيت من أى دواء لدرجة جعلتها تبتسم لها في سعادة وفتور . وبعد أن قضت ليلة هادئة ، ورغم أن مواصلتها للسفر كانت تعرضها لشيء من الخطورة فقد قررت أنطوانيت أن يهربا في ساعة مبكرة دون إخطار الطبيب الذى خشيا أن يحجزها مدة أخرى . كانت مجازفة مرت بسلام ، فالهواء النقي وسرور أنطوانيت لرؤيتها الأشياء الجميلة مع أخيها جعلاهما يصلان دون متاعب جديدة إلى نهاية الرحلة ، إلى قرية في الجبل تطل على بحيرة قريبة من بلدة سبير .

قضيا ثلاثة أسابيع في أحد الفنادق الصغيرة . لم تعاود الحمى أنطوانيت ، ومع ذلك لم تعد كما كانت . أخذت تشعر بثقل في رأسها غير محتمل ، وبانحراف في صحتها . كان أوليفيه يستفسر كثيرا عن صحتها ؛ إذ كان يتمنى أن يرى وجهها أقل شحوبا ، وكان جمال البلدة يسكره فيحاول بغريزته إبعاد الأفكار الكثيرة عن نفسه ويميل إلى تصديق أنطوانيت عندما تؤكد له أنها بصحة طيبة ، رغم معرفته داخلها أن الحقيقة غير ذلك . ومع هذا كانت تتمتع بما يبدو على أوليفيه من فرحة ، كما كانت تستمتع بالهواء وبالراحة متعة من تستريح بعد تلك السنوات الشاقة .

كان أوليفيه يريد أن يصحبها في كل نزهاته ، وكان بودها أن تشاركه في جولاته ، لكن كثيرا ماحدث أن ذهبت معه وكلها حماس ، إلا أنها كانت تضطر بعد ثلث ساعة إلى التوقف عن السير وهى تلهث وقلبها يخفق . كان أوليفيه يواصل جولاته وحده ، ويتسلق الجبال التى لا خطورة فى تسلقها ، ومع هذا كانت أخته ترتجف خوفا عليه حتى ساعة عودته . وفى مرات كانا يقومان بنزهات قصيرة فتكئى على ذراعيه ويسيران فى خطأ بطيئة وهما

يتجاذبان أطراف الحديث ، ويكثر أوليفييه من الكلام ، ويضحك وهو يحدّثها عن مشروعاته ، أو يقص عليها ما يضحكها ، ومن طريق جانبي في أعلى الوادي كانا يريان السحب البيضاء وهي تنعكس في مرآة البحيرة الساكنة ، والسفن وهي تسبح كالحشرات التي تطفو فوق مياه بركة صغيرة . وكانا يستنشقان الهواء دافئا ممزوجا بالموسيقا التي تنبعث من الأجراس المعلقة برقاب البقر وتحملها الرياح من بعيد ومعها رائحة الحشائش المقطوعة والأصماغ الدافئة . ويستسلمان معا لأحلام الماضي ولأحلام المستقبل ولأحلام حاضرهما الذي بدا له أجمل الأحلام وأكثرها سحرا ، كانت أنطوانيت تستسلم أحيانا لمرح شقيقها الصباني فتلهو معه ويجريان أحدهما وراء الآخر أو يتقاذفان الحشائش . وأخيرا رأى أوليفييه شقيقته تضحك كما كانت تفعل في الصغر ، في عهد الطفولة الذي لا يعبأ بشيء . تلك الضحكة التي لم يسمعها منذ سنوات ، والتي تشبه مياه الينابيع في صفائها .

لكن أوليفييه كان لا يستطيع غالبا أن يقاوم رغبته في القيام برحلات طويلة وبعد عودته يشعر بشيء من تأنيب الضمير . حدث أن لام نفسه لأنه لم يستمتع كما ينبغي بالأحاديث الحبيبة إلى نفسه مع شقيقته ، وكثيرا ما كان يتركها بمفردها في الفندق . وظلا مبتعدين عن النادي الاجتماعي للشبان والشابات ، إلا أن أن أوليفييه انجذب نحوه رغم خجله ؛ فقد كان محروما من الأصدقاء حتى ذلك الحين . ولم يعرف من الأصدقاء إلا الفظين منهم في الليسيه وصدقاتهم المنفرات . وشعر بشيء من السعادة لوجوده بين فتیان وفتيات في سنه ، مؤدبين محبوبين ومرحين . وبالرغم من نفور أوليفييه من الناس كان محبا للاستطلاع في شيء من السذاجة ، وكان له قلب عاطفي ذو إحساسات برئية . ينجذب لتلك الأضواء الخافتة التي كانت تلمع في أعين النساء المحيطات به . كان هو أيضا يعجبهن على الرغم

من خجله . كانت تلك حاجته البريئة إلى أن يحب ويشعر بأنه محبوب تضيى عليه - دون علمه - لونا من مرح الشباب ، وتجعله يتكلم ويأتى بحركات وبأعمال محبوبة لا يلبث ماها من خجل أن يجعلها أكثر جاذبية . كان جذابا بطبيعته ، وبالرغم من أن ذكاه الذى أصبح حاد السخرية فى وحدته ، أظهر له من سفه الناس وعيوبهم ما يجعله يبغضهم ، وبالرغم من ذلك كله كان أوليفيه عندما يتواجد أمامهم لا يرى إلا عيونهم التى تعبر عن نفوس ستموت يوما ما ، نفوس أشخاص لن يكون لهم إلا حياة واحدة مثله ، سينفقدونها مثله فى زمن قريب ، عندئذ يشعر نحوهم بعطف غير إرادى ولا يجد فى نفسه القدرة على أن يأتى نحوهم بأى أذى ، وسواء أراد أو لم يرد فهو يشعر أن عليه إبداء المرح . كان أوليفيه ضعيفا وهذا يعجب الناس الذين فى استطاعتهم مغفرة كل الرذائل والفضائل فيما عدا القوة وهى أساس كل شىء .

لم تندمج أنطوانيت فى هذا الجمع من الشباب ؛ إذ كانت صحتها المعتلة وضعف حالتها المعنوية دون سبب تشلائها ، وقد حدث خلال السنوات الطويلة التى قضتها وسط الهموم والعمل المضنى بما يبلى الجسد والروح أن انقلبت الأوضاع ، وقامت بواجب الشقيق فابتعدت عن العالم ولم تتمكن من العودة إليه . أصبحت تمل الأحاديث والضوضاء والضحك والتفاهة ، بل كثيرا ما يجرح شعورها وتتألم وتود لو شابهت الفتيات الأخريات وأن تهتم بما يهتمن به ، تضحك لما يضحكهن . كانت تشعر بانقباض وكأنها ماتت ، وفى المساء كانت تغلق غرفتها ، وكثيرا ما كانت تبقى فى الظلام دون أن تشعل المصباح ، فيما يجلس أوليفيه فى الصالون فى الطابق الأسفل يستسلم لحب عارض خيالى ، وهى إحدى الحالات العاطفية التى تتناهى . ولا تخرج أنطوانيت من خمونها إلا عندما تسمع شقيقها يعود إلى الطابق الأعلى

وهو يضحك ويثرثر مع صديقاته ويبادلهن على باب غرفتهن تحيات الوداع .
كانت انطوانيت تبتسم وسط الظلام وتنهض لتوقد المصباح ، فضحكة
أنهيا كانت تبعث فيها الحياة .

كان الخريف قد اقترب وبدأت الشمس تنطفئ شيئا فشيئا ، والطبيعة
تذبل ، والألوان تفقد زهوتها تحت غيوم وسحب شهر أكتوبر . وسقط
الثلج فوق المرتفعات وكسا السهل الضباب . فرحل المسافرون أفرادا
وجماعات وعمت الكآبة على الجميع لفراق الأصدقاء ، وحتى
الغرباء، وكذلك رحيل فصل الصيف ، فصل السكون والسعادة كروضة
وسط الحياة .

تنزه الشقيقان معًا مرة أخيرة وسط غابة على سفح الجبل ، ولم يتحدثا ،
كانا يحلمان في تأثر ويقرب كل منهما من الآخر وهما يرتجفان من البرد وقد
التفا في معطفيهما ، وسارا متشابكي الأصابع . كانت الخمائل الرطبة صامتة
وكأنها تبكي في سكون فيما كانت تأتي من أعماق الغابة صرخات خافتة
وخائفة لطير وحيد شعر باقتراب الشتاء ، ثم زنين جرس لقطع يدوى في
الضباب بعيدا لا يكاد يسمع وكأنها يدق في أعماق صدريهما . عادا إلى باريس
وهما مكتئبان ولم تستعد أنطوانيت صحتها .

كان على أنطوانيت أن تهتم بما يلزم أوليفيه من ملابس عند عودته إلى
المدرسة فكلفها ذلك ما ادخرته، بل باعت حليها سرا ، على أمل أن
يعوضها في المستقبل كما أنها لن تحتاج إلى شيء . كانت تمنع نفسها من
التفكير فيما سيحدث لها بعد أن يصبح أوليفيه بعيدا عنها ، وأخذت تعمل
في تجهيز ملابسه ، بكل ما لديها من حنان وحب نحوه على اعتبار أن هذا
آخر ما تقدمه له .

أصبحت لا يفترقان في الأيام الأخيرة التي يقضيانها معا خشية أن تضيع منها لحظة واحدة . وسهرا معا في الليلة الأخيرة بجانب المدفأة: أنطوانيت جالسة على المقعد الوحيد في المنزل ، وأوليفيه على مقعد صغير تحت قدمي أخته تاركا إياها تلاطفه ، فقد اعتاد أن يكون معها كالطفل الكبير المدلل . كان مشغول البال ومهتما أيضا بالحياة الجديدة التي هو مقبل عليها . خطر لأنطوانيت أن ما بينهما من ود عميق قد انتهى ، وأخذت تتساءل في فزع عما عساه يحدث لها وكأنها أراد أوليفيه أن يزيد من آلامها فأبدى في هذه الليلة من الحنان ما لم يبده أبدا ، تماما كما يفعل أولئك الذين ينتظرون ساعة الرحيل ليظهروا في دلال برىء أحسن ما في نفوسهم وأرقه . جلس أمام البيانو وأخذ يعزف طويلا أنغام موزار وجلوك التي كانا يعشقانها أكثر من غيرها . تلك الأنغام التي تصور لمحات من السعادة والحنان كما تصور من صفاء النفس الحزينة والتي كثيرا ما اختلطت بأحداث حياتها الماضية .

حانت ساعة الفراق ، ورافقت أنطوانيت أخاها حتى باب المدرسة ، ثم عادت إلى المنزل لتجد نفسها وحيدة مرة أخرى ، فالحال تغير عما كان عليه أثناء رحلتها إلى ألمانيا ؛ إذ لم يعد في استطاعتها أن تضع لنفسها حدا للفراق إذا لم تتحمله ، أما هذه المرة فبقيت هي ورحل أوليفيه إلى أمد بعيد ، رحل لمدى الحياة .

كانت تشعر نحو أخيها في اللحظات الأولى للفراق أكثر مما تفكر في نفسها . وشغلت نفسها بتلك الأيام الأولى من حياته الجديدة التي اختلفت تماما عن حياته السابقة . أخذت تفكر في الأعيب تلاميذ تلك المدرسة ، وفي هذه المضايقات البسيطة التي كثيرا ما تتخذ أشكالا مخيفة في أذهان أولئك الذين يعيشون في الوحدة ، والذين اعتادوا مثل أنطوانيت تعذيب أنفسهم بالتفكير فيمن يجبون . ولو أن هذا الانشغال عاد عليها بفائدة ؛ إذ خفف

بعض الشيء من وحدتها . وسرعان ما فكرت في نصف الساعة التي سترى شقيقها خلالها في اليوم التالي في قاعة استقبال المدرسة ، ووصلت إلى هناك قبل موعدها بربع ساعة . وكان أوليفيه لطيفا معها غير أنه كان مشغولا ومسرورا بما رآه من حياته الجديدة . وعادت لزيارته في الأيام التالية وهي تفيض حبا وقلقا عليه .

وازداد التباين بينهما على مقدار اهتمام كل منهما بتلك اللحظات التي يلتقيان فيها . كانت تلك اللحظات بالنسبة لأنطوانيت كل شيء في الحياة . أما أوليفيه فإنه كان يجب أخته إلا أن أحدا لا يستطيع أن يطالبه بأن يفكر في أخته وحدها . ولقد حدث مرة أو مرتين أن جاء متأخرا إلى قاعة الاستقبال ، ولما سألته في أحد الأيام إن كان يتضايق أجاها بالنفى . كانت تلك الأشياء كضربات خفيفة من خنجر تسدد نحو قلب أنطوانيت ، عاتبت نفسها على هذه الحساسية من ناحيتها واعتبرت نفسها أنانية ، فكانت تعلم جيدا عدم استطاعته الاستغناء عنها وعدم استطاعتها الاستغناء عنه ، فهو هدفها في الحياة بطريقة لا تعقل ؛ لأنه أمر مخالف للطبيعة . كانت تعرف كل ذلك بلا فائدة ! إنها لا تقوى على شيء طالما وهبت كل حياتها منذ عشر سنوات للتفكير في شيء واحد : في أخيها . وبعد أن انتزع منها الشيء الوحيد الذي يهيمها في الحياة ، أصبحت لا تملك شيئا .

حاولت بكل شجاعتها أن تشغل نفسها بأعمالها ، بالقراءة والموسيقا والكتب المحببة إليها بعد أن أصبح شكسير وبتهوفن لاعمى لها بغير أخيها ، كانا شيئا جميلا ، ولكن لم يعد يوجد أوليفيه فما فائدة الأشياء الجميلة إذا لم ترها عيون الإنسان الحبيب ؟ ماذا تفعل بالجمال والهناء إذا لم تشعر بهما في قلب من تحب ؟

لم تكن تملك القوة التى تستطيع بها أن تغير مجرى حياتها نحو هدف آخر، ولكنها كانت منهكة . حقا لم يعد هناك ما يضطرها للمقاومة ، ولكن المجهود الذى فرضته على نفسها أوجد المرض الذى تمكن من جسدها المستعد له منذ أكثر من عام ، ولم تعد قادرة على التغلب عليه بنشاطها كما كانت تفعل .

أخذت تقضى لياليها فى المنزل وحيدة ، مستسلمة لهمومها وهى جالسة إلى المدفأة المطفأة ، لم تكن تملك الشجاعة لتشعل نارها مرة أخرى ، ولم تكن تملك مجرد القوة التى تساعدها على الذهاب إلى الفراش ، فتظل جالسة ترتعد من البرد حتى منتصف الليل مستسلمة للنعاس والأحلام ، وتبدأ فى استعادة ذكرياتها مع من فارقتهم ، ومع أوهامها التى تبددت ، وتشعر بحزن شديد على شبابها الذى ولى بغير حب ، وتشعر بألم لا تعرف مصدره أو لا تريد الاعتراف به ، وهى تشعر به كلما تناهت إلى سمعها ضحكة طفل يمر بالطريق أو وقع خطواته المترددة فى الدور السفلى من المنزل ، بأقدامه الصغيرة التى تمشى فوق قلبها . ووقعت فريسة للشكوك ، وللأفكار الشريرة ، فريسة للأثانية التى انتقلت عداوها من هذه المدينة اللاهية إلى روحها التى بدأ الضعف يسرى فيها ، كانت تحارب الندم وتحجل من رغباتها ، ولم تكن تفهم سببا لما يعترىها من عذاب ، وإن كانت ترجع ذلك إلى الغرائز الشريرة ، فأوفيليا الصغيرة المسكينة التى وقعت بين برائن الشر المجهول ، أخذت تشعر من هذه العاصفة المضطربة التى تصعد من أعماق نفسها ، من أعماق الحياة ، ولم تعد تعمل شيئا . هجرت معظم دروسها ، هى التى كانت تستيقظ مبكرة ، أصبحت لا تغادر فراشها قبل الظهيرة ، بل أصبح الأمر يستوى عندها ، أن تنام أو تستيقظ ، لم تعد تأكل إلا ما يقيم أودها أو لا تأكل على الإطلاق ، إلا أنها بعد ظهر كل خميس

ومنذ صباح كل يوم أحد ، عندما يحصل أخوها على إجازة ، كانت تحاول أن تبدو معه كما كانت في الماضي .

لم يلاحظ أوليفيه شيئا ، فقد أعجبه حياته الجديدة أو اجتذبه لدرجة جعلته لا يلتفت كثيرا إلى أخته . كان يمر بفترة من فترات الشباب التي لا يوح فيها الشاب بما في نفسه بسهولة ، والتي يبدو فيها مكثرنا بأشياء قد تأثر بها في الماضي وإن ظهرت أهميتها فيما بعد . فالمتقدمون في العمر كثيرا ما تظهر لديهم مشاعر أنصر من شباب العشرين ، كما يتمتعون في براءة بمباهج الطبيعة والحياة أكثر منهم ، فقلوب الشباب أقل حيوية وأكثر فتورا ، وهو قول كثيرا مالا يكون صحيحا ، والواقع أن تظاههم بعدم الاكتراث لا يعنى الفتور، وإنما يعنى أن نفوسهم تكون ملكا للعواطف ، والآمال والرغبات والأفكار التي يتمسكون بها . وعندما يبلى الجسد وتخلو الحياة من مطامعها ، تعود الأحاسيس المجردة من الشهوات إلى الظهور من جديد . لقد كان أوليفيه مشغولا بكثير من هذه الأشياء الصغيرة ، كان أهم تلك المشاكل عنده حب صغير لا معنى له . كان دائم الانشغال بأمثال هذه العاطفة في الحياة ، ولم تكن أنطوانيت تعلم شيئا مما يدور بخلد أوليفيه ، كل ملاحظته أن أباها بدأ يتعد عنها ، ولم يكن هو مسئولا كل المسئولية عن ذلك . فأحيانا بينها يكون في طريقه إلى زيارة أخته يشعر بشوق جارف إلى أن يراها ويتحدث إليها ، ولكنه كان بمجرد أن يلقاها يشعر بالبرودة تسرى إليه . إن الحب القلق والحرارة التي كانت تدفعها إلى التعلق به وإلى امتصاص كلماته والمبالغة في العناية به وإفراطها في العاطفة نحوه واهتمامها الزائد بأمره ، هذه الأشياء كانت تفقده الرغبة في الإفضاء بها في نفسه ، كان يجب عليه أن يفهم أن أنطوانيت لم تكن في حالتها الطبيعية ، ولم يكن هناك شيء أبعد من هذا السلوك عن رزانتها ، ورقتها المعتادة . إلا أنه

لم يفكر في ذلك أبدا . كان يقابل أسئلة أخته بنعم أولا ، وكان يقاوم في عناء كلما حاولت أن تخرجه من صمته ، بل كان يجرحها بإجاباته القاطعة ، فتلوذ بالصمت وهي تشعر بالحسرة في قرارة نفسها ، ويمر يومها . يوم آخر يضع منها ومايكاد أوليفيه يغادر البيت ليعود إلى المدرسة حتى يشعر بضميره يؤنبه بسلوكة مع أخته . وفي الليل كان يتعذب عندما يفكر فيما أحدثه لها من ألم ، بل كان يحدث أن يشرع - بمجرد عودته إلى المدرسة - في كتابة رسالة تفيض عاطفة ، ولكنه يمزقها بمجرد أن يعود لقراءتها في اليوم التالي . أما أنطوانيت فلم تكن تعلم من ذلك شيئا ، كانت تعتقد أن أخاها لم يعد يجيها .

مرة أخرى حدث لأنطوانيت أن شعرت بأخر بادرة من عواطف الشباب ، وإن لم تكن تلك آخر فرصة لها ، ونهض قلبها في يقظة يائسة وعاطفة قوية من الحب والأمل في السعادة . كان عقلها يرفض لأنه يختلف مع طبيعتها الهادئة تماما . كان لابد لها لكي تمر بهذه التجربة العاطفية من هذا الاضطراب الذي تعيش فيه وهذه الحالة من الذهول والإثارة إنذارا بوقوع الشر .

ذهبت مرة مع أخيها لحضور إحدى حفلات شاتليه الموسيقية ، ولما كانت إحدى المجلات الصغيرة قد كلفت أوليفيه عمل النقد الموسيقي للمجلة ، فقد جلس هو وأخته في أماكن أفضل من التي كانا يجلسان فيها من قبل ، وإن كان الجمهور حولهما أشد سخافة من الجمهور الآخر ، جلسا على كرسيين بالقرب من المسرح . كان على كريستو كرافت أن يعزف في تلك الليلة . لم يكونا يعرفان هذا الموسيقار الألماني ، وما إن بدا أمام عيني أنطوانيت حتى شعرت بالدماء تتدفق إلى قلبها ، وبالرغم من أن عينيها المتعبتين لم ترياه إلا من خلال غلالة ضبابية ، فلم يكن لديها أدنى

شك ، فبمجرد دخوله عرفت فيه الصديق المجهول ، صديق أيامها التعسة في ألمانيا . لم تكن قد تحدثت عنه إلى أخيها ، فكانت تجد صعوبة في التحدث عنه حتى إلى نفسها . ومنذ ذلك الوقت ومشاغل الحياة تحتل كل تفكيرها . كما أنها من ذلك النوع من الفرنسيات الصغيرات العائلات اللاتي يرفضن العواطف الغامضة التي لا يعرفن مصدرها والتي لا مستقبل لها . كان في أعماق حياتها الروحية المجهولة مخبأ ، رقدت فيه عواطف أخرى كثيرة ربما خجلت من رؤيتها ، كانت تعلم تماما أنها موجودة ، ولكنها كانت تحول نظرها عنها نتيجة لخوفها الديني من الخالق الذي لا يمكن للفكر البشري أن يحيط به .

أفاقت قليلا من اضطرابها ، فاستعارت من أخيها منظاره لتشاهد كريستوف ، كانت ترى وجهه من ناحية جانبية وهو واقف في مكان قيادة الأوركسترا ، وعرفت تعبيرات وجهه الفنية المركزة . كان يرتدى ملابس قديمة لاتناسبه إطلاقا . وتابعت وكأنها تجمدت في صمتها ، تابعت مشاهدة تطورات هذا الحفل الموسيقي الذي يستحق الرثاء ، والذي عرض كريستوف فيه نفسه للاحتكاك بجمهور أساء استقباله إساءة ساخرة ، هذا الجمهور الذي لم يكن معدا لهؤلاء الفنانين الألمان ؛ ولذلك أجهزت عليه موسيقا كريستوف . وبعد أن عزف إحدى السيمفونيات التي بدت طويلة عناد فظهر ليعزف بعض الألحان على البيانو ، وهنا قوطع بعبارات من الاستهجان لم تدع مجالا للشك في عدم ارتياح الجمهور لرؤيته مرة أخرى ، ومع ذلك فقد بدأ العزف أمام الجمهور الذي لاحول له ولا قوة ، وبدأت الملاحظات الجارحة تسرى بين جمهور المقاعد الخلفية فتنشر المرح في الصالة ، توقف كريستوف عن عزفه ، وفي عناد الشباب الذي لايبالي بالخطأ أخذ يعزف

بأصبع واحدة لحن أغنية (مالبروج ذاهب إلى الحرب) ثم غادر البيانو ليقول للجمهور : هذا ما يناسبكم . !

مرت لحظة على الجمهور لم يدرك فيها مقصد كريستوف لأول وهلة ، ثم انطلقت الصرخات ، وتلا ذلك مشهد لا يمكن تصوره من الضجيج والصفير . وأخذ الكل يصيح ويصرخ : يجب أن يعتذر . . عليه أن يعتذر

وغلت الدماء في وجوه الناس وهم يستثير بعضهم بعضاً ، وبدءوا يقتنعون بأنهم أهينوا حقاً ، وربما كانوا مقتنعين بذلك ، إلا أنهم انتهزوا الفرصة ليتهادوا في إحداث الضجيج كما يفعل تلاميذ المدارس بعد أن يمضوا سباعتين في الفصل .

لم تكن أنطوانيت تملك القوة لتتحرك ، كما كانت كالمذهولة ، وتقلصت أصابعها على قفازها فمزقته بحركة خفية . فمئذ بدأت الأنغام الأولى للسيمفونية تنبأت بما سيحدث ، كانت تتوقع من الجماهير هذا العداء الصامت وتشعر به وهو ينمو شيئاً فشيئاً ، وكانت تقرأ على وجه كريستوف أنه لن يذهب بلحنه إلى النهاية دون أن يحدث انفجار ما . وانتظرت هذا الانفجار ، وهي تشعر بالاضطراب المتزايد ، وأخذت تجمع قواها لتمنع هذا الانفجار ، لكنه وقع وحدث بالضبط كما كانت تتوقعه . شعرت معه بلأن يد القدر تسحقها فلا تستطيع لها رداً .

وبينما هي لا تكف عن النظر إلى كريستوف الذي يحمق بتحد في الجماهير الثائرة التقت نظراتهما . ربما عرفها كريستوف بعينه إلا أنه لم يستطع أن يتعرف عليها بذهنه وسط العاصفة ، فهو لم يعد يفكر فيها واختفى وسط سيل من الصفير .

ودت لو تصرخ ، لو تقول أى شيء ، لكنها كانت تشعر بأنها مقيدة كما

لوكانت في كابوس . وخفف من ألمها أن سمعت صوت أخيها الذي لم يدرك ما كان يدور داخل نفسها والذي شاركها ألمها وازدراؤها للجمهور ، كان أوليفيه موسيقيا أصيلا ذا ذوق حر لم يستطع شيء أن ينال منه ، فهو إذا أحب شيئا أحبه حتى لو خالفه الناس جميعا . وما كاد يسمع النغمات الأولى من السيمفونية حتى أدرك أن شيئا عظيما لم تألفه حياته من قبل يحدث ، فأخذ يردد بصوت خافت ولكن بحرارة بالغة :

كم هي رائعة هذه الموسيقى ، هي رائعة !

في حين أخته أخذت تقترب منه بطريقة لا إرادية كانها تقترب لتشكره على ما يبديه من ملاحظات ، وما كادت السيمفونية توشك على الانتهاء حتى أخذ أوليفيه يصفق تصفيقا حادا احتجاجا حادا على عدم اكتراث الجمهور وسخريته .

ولما حدثت الضجة خرج أوليفيه عن شعوره وهب هذا الشاب الخجول واقفا وأخذ يصرخ معلنا أن كريستوف على حق ، وأخذ يخاطب في عنف الذين يطلقون الصفير كأنها يريد أن يتشاجر معهم . ولكن صوته ضاع وسط الضجيج . وهكذا رد الجمهور عليه بألفاظ بدئية ، ووصفوه بالحمق ونصحوه بأن يذهب لينام . ولما كانت أنطوانيت تعلم أن لا جدوى من تمرد شقيقتها على الجمهور فقد شددت أوليفيه من ذراعه وهي تقول :

- اسكت ، أرجوك . . اسكت .

فعاد إلى الجلوس يائسا وهو مازال يزمجر قائلا :

ياللعار ! ياله من عار أيها المساكين !

أماهي فلم تقل شيئا . كانت تتألم في صمت حتى ظن أوليفيه أنها لا تشعر بجمال هذه الموسيقى . فقال لها :

- أنطوانيت ، ألا تجدين أنت أن هذه الموسيقى جميلة ؟

أومات برأسها وظلت جامدة ولم تستطع أن تعود إلى طبيعتها ، ولكن عندما شرع الأوركسترا في عزف مقطوعة أخرى ، قامت فجأة من مكانها وهي تهمس برنة لاتخلو من الكراهية :

هيا ، هيا ، لم أعد أتمكن من رؤية هؤلاء الناس . غادروا المكان مسرعين . وفي الطريق كان أوليفيه يتأبط ذراع أخته وهي يتكلم بحدة ، أما أنطوانيت فسارت صامتة .

قضت أنطوانيت الأيام التالية وحيدة في غرفتها . ألقت بنفسها في عاطفة تحاول تجنبها ، إلا أنها كانت تلح عليها من خلال أفكارها كأنها طرقات الدماء تدق رأسها فتحدث لها الألم .

مضت فترة أتاها أوليفيه بعدها بكتيب يحتوي على مجموعة من الحان كريستوف اكتشفه أخيرا عند أحد الناشرين . فتحته مصادفة وما كاد بصرها يقع على أول صحيفة منه حتى وجدت نفسها تقرأ على رأس إحدى المقطوعات إهداء مكتوبا بالألمانية : « إلى ضحيتي الصغيرة الحبيبة المسكينة » وقد ذيل هذا الإهداء بتاريخ .

كانت أنطوانيت تعرف جيدا هذا التاريخ ، اضطربت لدرجة لم تستطع معها أن تواصل القراءة ، تركت الكتيب وانصرفت إلى غرفتها بعد أن توسلت إلى أخيها أن يقوم بالعزف على البيانو . أغلقت عليها الباب ، وبدأ أوليفيه الذى استهوته هذه الموسيقى الجديدة في العزف دون ملاحظة التأثر الذى طرأ على أخته ، وجلست هي في غرفتها المجاورة تحاول أن تسيطر على ضربات قلبها ، وفجأة قامت من مكانها وأخذت تفتش في دولاب ملابسها عن دفتر صغير كانت تقيد فيه مصروفاتها ، وبحثت عن تاريخ مغادرتها لألمانيا لتقارنه

بهذا التاريخ الغامض . كانت تعرفه من قبل . كان ذلك ليلة العرض التي حضرتها مع كريستوف ، واستلقت على فراشها وأغمضت عينيها وهي تشعر بشيء من الخجل ، وضغطت بيدها على صدرها وأخذت تستمع إلى الموسيقى الحبيبة . كان قلبها ينبض بالعرفان ، ولكن لما ذا تشعر بهذه الآلام في رأسها ؟ ! .

رأى أوليفيه أن أخته لزمت غرفتها ، فأنها عزفه ودخل إليها ليجدها مستلقية ، سألها عما يؤلمها فأجابت : إنه مجرد تعب ، ثم قامت لتجلس معه . أخذوا يتحدثان إلا أن أنطوانيت لم تجب بسرعة عن أسئلة أخيها . كانت كأنها تعود من مكان بعيد ، ثم ابتسمت وبدا عليها الخجل ، واعتذرت بأن صداعا شديدا يكاد يحطم رأسها ، وأخيرا خرج أوليفيه ، وقد طلبت منه أن يترك لها دفتر الألحان ، وظلت طويلا في الليل بمفردها جالسة على البيانو في هدوء شديد ، خشية إزعاج جيرانها وتذمرهم ، لم تقرأ طويلا واستمرت أغلب الوقت يتملكها دافع عرفان الجميل والحنان لهذه النفس التي عطف عليها ، فقد قرأ في نفسها بما لطيبة القلب من إدراك عجيب خفي ، ولم تستطع أن تركز أفكارها . كانت تشعر بالسعادة والبؤس في آن . ولكم كان يؤلمها صداع الرأس !

قضت ليلتها وسط أحلام مؤلمة وكآبة مضيئة . وفي الصباح أرادت ان تخرج قليلا ؛ لكي تقاوم حالة الخمود التي تملكها ، ولكي تجعل لخروجها هدفا ، ذهبت زعم استمرار الآلام لإحضار بعض المشتريات من أحد المحال الكبيرة ، ولم تكن تفكر فيما تفعل .

كانت تفكر في كريستوف دون أن تعترف لنفسها بذلك ، وبينما هي خارجة وسط الازدحام متعبة وتكاد تموت حزنا ، رأت كريستوف يمر على الرصيف على الجانب الآخر من الشارع . زآها كريستوف في اللحظة نفسها .

وفي الحال ودون تفكير مدت أنطوانيت يدها إليه وتوقف كريستوف عن السير . عرفها هذه المرة! وبينما هو يندفع وسط الطريق ليتجه نحو أنطوانيت ، وبينما تحاول أن تذهب هي للقاءه ، إذا بأفواج الناس المتزاحمة تتقاذفها في عنف كما لو كانت عودا من القش . ويعترض الطريق حصان يجر سيارة ركاب وهو يسقط على الشارع المزلق فيقيم سدا أمام كريستوف تجمعت عنده عربات محدثة حاجزا لا يمكن اختراقه . ورغم ذلك كله صمم كريستوف على أن يمر، ولكنه وجد نفسه وسط العربات لا يتمكن من التقدم أو التراجع ، وعندما نجح في التخلص من هذا الازدحام والوصول إلى المكان الذي رأى فيه أنطوانيت ، كانت قد ابتعدت كثيرا . فقد حاولت عبثا أن تقاوم هذا السيل البشري ثم استسلمت لأمرها ولم تحاول الجهاد . فقد انتابها شعور بأن هناك قَدْرًا جائئاً عليها يعارض مقابلتها لكريستوف ، ومامن قوة تستطيع شيئا أمام القدر . ولما نجحت في الخروج من وسط الجموع لم تحاول أن تعود أدراجها . فقد تملكها الخجل . ماذا يمكن أن تتدله؟ وماذا تجسر عليه؟

وماذا سيظن بها؟ وهكذا فرت عائدة إلى منزلها .

لم تشعر بالطمأنينة حتى وصلت إلى البيت . وعندما دخلت حجرتها ظلت جالسة في الظلام أمام المنضدة دون أن تقوى على خلع قبعتها وقفازاها . كانت بائسة ؛ لأنها لم تستطع التحدث إليه ، وفي الوقت نفسه كان ضوء ينير قلبها ، فلم تعد ترى الظلام ، ولم تشعر بالألم الذي كانت تعانيه . استمرت تستعيد في خيالها كل تفاصيل هذا المشهد الذي وقع ، وتغيره ، فتخيل ما كان يحدث لو أن الظروف تغيرت وترى نفسها وهي تمد ذراعها لكريستوف ، ثم ترى عبارات الفرح ترتسم على وجهه عندما تعرف عليها ، فتضحك ويحمر وجهها خجلا . وفي ظلام الحجرة حيث لا يمكن لأحد أن

يراها وهي وحدها مدت إليه ذراعها مرة أخرى . كان هذا الشعور أقوى منها، كانت تشعر أنها راحلة ، فتحاول بالغريزة ، أن تتعلق بهذه الحياة القوية التي تحف بها والتي بعثت إليها بنظرة تملؤها المحبة . أما قلبها المليء بالحنان والفرح فكان يناديه في الليل بقوله :

- أنقذنى ! أنقذنى !

قامت لتشعل المصباح ولتأخذ ورقة وقلما ، وكتبت لكريستوف . لم تكن تفكر أبدا وهي الخجولة المترفة أن تكتب إليه لولا أنها كانت فريسة للمرض . ولم تكن تدرك ما تكتبه ؛ إذ أنها فقدت السيطرة على نفسها، فكانت تناديه وتبوح له بحبها ، ولكنها توقفت منزعجة وأرادت أن تعيد كتابة الرسالة ، ولكن مجهودها تحطم ، وكان رأسها خاويا ، مرتفع الحرارة ، ووجدت صعوبة هائلة في إيجاد الكلمات ؛ إذ كان التعب يضيئها . كانت خجولة، ولكن مافائدة ذلك ، فهي تعلم جيدا أنها تخدع نفسها وأنها لن ترسل هذه الرسالة أبدا ، وحتى لو أرادت فكيف ترسلها إليه ، فهي لاتعرف له عنوانا . وماذا يمكنه أن يفعل لها حتى إذا علم بكل شيء رغم مايكنه لها من طيبة . لقد فات الأوان . فكل ذلك عبث ، إنها محاولة أخيرة لطير يحنق ويخفق بجناحيه في جنون . وعليها أن تستسلم .

ظلت طويلا أمام منضدتها مستغرقة في أفكارها غير قادرة أن تنتزع نفسها من سكونها . كان الليل قد انتصف عندما قامت بعناء وشجاعة ووضعت - كما تعودت دائما - مسودة رسالتها داخل كتاب في مكتبتها الصغيرة ؛ إذ لم تقو على ترتيبها أو تمزيقها . ونامت وهي ترتعد من الحمى .

بدأ ينكشف بمر هذه المحاولة ، وشعرت أن إرادة الرب تتم ، وإذا براحة كبيرة تغمرها . عاد أوليفيه من المدرسة صبيحة يوم الأحد ليجد أنطوانيت

طريجة الفراش وقد بدا عليها شيء من الهذيان . جاء الطبيب فقرر أنها أصيبت بذبحة صدرية حادة !

كانت أنطوانيت في الأيام السابقة قد بدأت تدرك مدى خطورة هذه الحالة ، واكتشفت أخيراً سبب ذلك الاضطراب المعنوي الذي كان يلزمها ، كانت المسكينة تحجل من نفسها ، لما يمر بها من هواجس ، لكنها شعرت بارتياح عندما أدركت أن المرض هو الذي سبب لها تلك الاضطرابات النفسية ، ووجدت أن لديها المقدرة على اتخاذ بعض الاحتياطات ، فأشعلت النار في أوراقها ، وكتبت رسالة للسيدة ناتان ترجوها فيها أن تقبل الإشراف على أخيها في الأسابيع الأولى بعد موتها (ولم تجرؤ على كتابة هذه الكلمة) .

عجز الطبيب على فعل شيء ، فالمرض كان بالغ الخطورة ، كانت سنوات التعب الطويلة قد أنهكت قواها ، إلا إنها ظلت هادئة ، فمنذ شعرت أنها تقترب من النهاية وهي تتخلص من مخاوفها ، وأخذت تستعرض في ذاكرتها كل التجارب التي مرت بها ، وتستعيد في نفسها كيف أتمت رسالتها ، وكيف أنقذت حبيبها أوليفيه ، وكان يغمرها نوع من السرور لا يوصف . لقد كانت تحدث نفسها : « أنا التي صنعت هذا » . ثم تعود فتلوم نفسها ، إذ تشعر بشيء من الكبرياء فتقول : « لو كنت وحدي لما استطعت شيئاً ، إن الله كان معي » .

وتشكر الله الذي منحها الحياة حتى أتمت مهمتها . كان قلبها ينقبض لشعورها بأن عليها أن ترحل ، لكنها لا تجرؤ على التذمر خشية أن تبدو ناكرة للجميل أمام خالقها الذي كان في استطاعته أن يصطفئها إلى جواره قبل ذلك بكثير . ترى ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها رحلت منذ عام مضى ؟ .

تنهدت عندما تذكرت ذلك ، وخضعت لإرادة الله شاكرة جميله .
وبالرغم من الضيق الذي كان يعترها لم نتكن تشكو أبدا إلا حينما تستغرق
في نوم عميق تثن خلاله كطفل صغير . كانت تنتظر إلى الناس والأشياء
بابتسامة مستسلمة ، وكانت مجرد رؤيتها لأوليفيه تسبب لها فرحا دائما .
كانت تحرك شفيتها وهي تناديه دون أن تنطق طويلا في صمت ، وأخيرا
كانت تقوم لتضع رأسه بين يديها ، وتقول له :

- أوليفيه ! أوليفيه !

وتنتزع من حول جيدها سلسلة في آخرها ايقونة وتطوق بها عنق أخيها .
وأوصت الجميع بأخيها خيرا . قسيسها الذى تعترف له وطبيها وكل من
تعرفه . كان واضحا أنها لم تعد تعيش إلا من خلال حياة أخيها وأنها على
وشك الموت .

كانت تلجأ إلى هذه الحياة ، كما لو كانت آخر جزيرة تأوى إليها .
وكانت تأخذها أحيانا نشوة صوفية من الإيمان والحنان ، فلا تعود تشعر
بالأمها ، ويتحول الحزن لديها إلى سرور إلهى كان يظهر كالنور في عينيها وعلى
فمها وهي تردد قائلة

- أنا سعيدة .

ويسيطر عليها نوع من الفتور . كانت في لحظاتها الأخيرة قبل أن تفقد
وعياها تحرك شفيتها ، فيعرف أنها كانت تتلو شيئا . ويقرب أوليفيه من
فراشها ويميل نحوها . كانت ماتزال تعرفه ، فتبتسم له ابتسامة خفيفة
وتظل شفتها تتحركان فيما عيناها مغروقتان بالدموع ، وعندئذ لا يستطيع
أحد أن يسمع ماتريد أن تقول ، ولكن أوليفيه يستطيع أن يلتقط من فمها
همسا لكلمات أغنية قديمة طالما أحباها ، طالما غنتها هي له : «سأعود أياها
المحبيب . . سأعود . »

وعاد إليها إغماؤها . . رحلت !

كانت أنطوانيت - دون أن تدري - قد أنشأت مع الكثير من الغرباء صلة من الود العميق ، وهذا حدث لها في المنزل التي كانت تسكن فيه على الرغم من جهلها مجرد أسماء جيرانها . وهكذا تلقى أوليفيه من أناس لا يعرفهم كثيرا من دلائل المواساة . ولم يكن موكب جنازة أنطوانيت مهجورا كما حدث لجنازة أمها . بل تبعها كثيرون إلى مقرها الأخير ، كانوا من الأصدقاء أو من زملاء أوليفيه أو من الأسر التي عرفت أنطوانيت عن طريق إعطاء الدروس ، أو كانوا مجرد أناس مرت بهم صامتا دون أن تخبرهم هي بشيء عن حياتها ودون أن يحاولوا أن يعرفوا شيئا ، وإن كانوا معجبين سرا بثقافتها . وشيعها كذلك بعض الفقراء ، والخدم الذين كانت تقوم بمساعدتهم وبعض صغار التجار في الحى . أما أوليفيه فقد اصطحبتة السيدة ناتان ليلة وفاة أخته رغما عنه إلى منزلها ؛ ولهذا انتزعته عنوة من بين أحزانه .

كانت تلك هى الفترة الوحيدة فى حياته التى يستطيع فيها أن يقاوم مصيبة كهذه الفترة الوحيدة التى لم يسمح له فيها بأن يستسلم ليأسه استسلاما كاملا . كان أوليفيه قد بدأ صفحة جديدة من حياته ، وبالرغم من مصيبته فقد سار مع التيار كواحد من أفراد مجتمعه الصغير . كانت أعماله ومشاغله مدرسته وهى تفكيره الذهنى ونضاله من أجل الحياة ، كلها تمنعه من الانطواء على نفسه ، لم يكن يستطيع الانفراد بنفسه ، كان ذلك يؤلمه ، ولكن كان فيه إنقاذ له ، ولو كان موت أنطوانيت قد حدث قبل ذلك العام أو بعده بأعوام لكان فيه نهاية أوليفيه .

ومع ذلك فقد اختلى بنفسه مع ذكرى أخته ما استطاع وتألم ؛ لأنه لم يستطع الاحتفاظ بالمسكن الذى عاش فيه مع شقيقته ، فلم يكن يملك من

المال مايسمح له بذلك ، كان يأمل من الذين يبدون اهتمامهم به أن يقدروا مبلغ حزنه ، لأنه لايستطيع الإبقاء على مايلتص بشقيقته ، ولكن أحدا لم يكن ليقدر موقفه ، واستأجر غرفة سطح من مال استدان بعضه وجمع البعض الآخر من إعطاء الدروس . وفي هذه الغرفة كرس كل ما استطاع الاحتفاظ به من أثاث أخته : سريرها ، طاولتها ، المقعد الكبير الذى كانت تجلس عليه ، ويجعل من ذكرياته محرابا يلجأ إليه كلما اشتد الحزن به . وظن أصدقاؤه أنه على علاقة غرامية ، على حين أنه كان يمكث في غرفته ساعات طويلة ، وقد احتوى رأسه بين يديه وهو يحلم بأخته ، فقد كان من سوء حظه ألا يكون لديه أية صورة لها ، إلا صورة فوتوغرافية صغيرة وهى فى سن الطفولة ، أخذت لها وهى بجانبه . كان أوليفيه يتحدث إلى الصورة ويكئ : أين مكان صاحبته الآن حتى لو كان فى الطرف الآخر من الدنيا ؟ أينما كان مكانها ومهما كان الوصول إليها صعبا ، فكم كان يسعد أن ينطلق باحثا عنها بحماس لايقهر ، مهما كلفه السعى فى سبيلها ، حينئذ يكون على استعداد لأن يسير حافى القدمين مئات السنين ، إذا كانت كل خطوة تقربه من شقيقته كان على استعداد لذلك ولو كان أمله فى الوصول ضعيفا . لكن ، لا أمل ! فلم تكن هناك وسيلة للوصول إليها أبدا . ياللوحدة التى أصبح يعيش فيها . أصبح عديم الحيلة كالطفل الصغير تلعب به أمواج الحياة ، فلم تعد له أخت تحبه وتنصحه وتواسيه . فمن حظ المرء أن يعرف ولو مرة فى العمر ألفة قلب صديق ، ألفة لا حدود لها ، هو قد عرف أسمى سعادة فى الحياة ، إلا أنها سعادة تجعله يعيش بقية عمرة شقيا .

وليس هناك أفسى على النفس من أن يتذكر الإنسان وهو فى غمرة شقائه أياما سعيدة مرت به . وأكبر كارثة بالنسبة للنفوس الضعيفة الرقيقة أن تكون قد عرفت السعادة الكاملة مرة فى حياتها ، ولكن مهما يكن الألم الذى

يضجع الإنسان وهو في مقبل عمره في عزيز لديه ، فإن ذلك يكون أخف وقعا على النفس مما لوحدث في سن متأخرة بعد أن تكون الحياة قد نضب معينها ، كان أوليفيه مايزال صغيرا ، وبالرغم من ميله الفطرى إلى التشاؤم وبالرغم من سوء الحظ الذى لازمه ، فقد كان في حاجة إلى أن يعيش ، ويبدو أن أنطوانيت وهى تودع الحياة قد بثت شيئا من روحها في نفس أخيها . أما أوليفيه فقد آمن بهذه الحقيقة ، وهو إن لم يكن متدينا كشقيقته فإنه كان يشعر شعورا عاما بأن أخته لم تمت تماما، وإنما انتقلت حياتها إلى جوار الله كما وعدت . فهناك اعتقاد يسود مقاطعة « يريتانيا » بأن الذين يموتون في الشباب لايموتون وإنما يظلون ، وهكذا ظلت أنطوانيت تعيش وتنمو إلى جانب أوليفيه .

أخذ أوليفيه يقرأ ماتبقى من الأوراق التى تركتها أخته . فقد شاء سوء الحظ أن تكون قد أحرقت معظم ما كان لديها من أوراق ، ومع ذلك لم تكن من أولئك اللواتى تَعَوِّذْنَ تسجيل مشاعرهن الشخصية ، بل كان وجهها يحمر خجلا إذا حدث أن كشف الناس عن أفكارها . لم يكن لديها سوى دفتر صغير للمذكرات التى كان من الصعب علي غيرها أن يفهم ماجاء به من رموز . أجندة صغيرة دونت فيها - دون تفسيرها - بعض التواريخ وبعض الأحداث اليومية الصغيرة التى أدخلت عليها السرور تتيح لنفسها الفرصة لكى تعيشها مرة أخرى . وأما معظم هذه التواريخ فكانت تعود إلى أحداث من حياة أوليفيه ، كانت أنطوانيت قد احتفظت بكل رسائله دون أن تفقد واحدة منها . ولكن كان أوليفيه أقل منها اهتماما بحفظ الرسائل ، فأضاع معظم ماوصله منها ، فقد كان يعتقد بأنه سيحتفظ بأخته إلى الأبد ولا حاجة إلى الرسائل . وقد كان يخيل إليه أن هذا النبع الحبيب من الحنان لاينضب ، وظن أنه يستطيع دائما أن يروى ظمأ شفثيه وقلبه من هذا النبع ،

إلا أنه كان عديم التبصر، فلم يحافظ على مامنحته أخته من حب ، وأصبح يتمنى لو يحصل على قطرات صغيرة منه . وكم تأثر عندما عثر بين صفحات من كتاب الشعر كان ملكا لأخته - على هذه الكلمات مكتوبة على ورقة بالية : « أوليفيه . . بأوليفيه الحبيب ! » .

كاد يغمى عليه ، وأخذ ينتحب وهو يضغط بشفتيه على شفתי أخته اللتين لا يراها إلا في الخيال ، وكانتا تتحدثان مع السيد في العالم الآخر . ومنذ ذلك الحين وهو يبحث في كتبها ، لعلها تكون قد أودعتها سرا آخر. وعثر على مسودة رسالة منها لكريستوف وعلم القصة الصامته التي كانت تنمو لدى أخته . واستطاع لأول مرة أن يقتحم حياتها العاطفية التي كان يجهلها والتي لم يحاول معرفتها من قبل ، وتذكر الأيام القلقة التي عاشتها بعد أن هجرها هو حين كانت تمدد ذراعها نحو الصديق المجهول ، لم تكن قد صرحت له أبدا بأنها سبق أن التقت بكريستوف ، إلا أنه اكتشف من سطور الرسالة أنها التقيا فعلا منذ عهد قريب في ألمانيا ، وفهم أن كريستوف عامل أنطوانيت معاملة كريمة في إحدى المناسبات التي لم يعرف أوليفيه تفاصيلها عندما نشأت عاطفة أنطوانيت نحو كريستوف وظلت محتفظة بسرهما حتى النهاية .

كان أوليفيه يحب كريستوف من أجل فنه فحسب ، ثم فجأة أصبح حبه له مشخصا ، حبا لا يوصف ؛ لأن أنطوانيت تحبه - لقد خيل إليه أنه يقتفى أثره ، فقد اختفى كريستوف من باريس الهائلة بعد فشله في حفل موسيقى كان قد أقامه ، واعتزل الناس ولم يعد يهتم به أحد .

مرت شهور وشاءت الصدفة ان يلتقى أوليفيه بكريستوف في الطريق . كان كريستوف أصفر الوجه بعد أن هزله المرض لم يشف منه إلا أخيرا ، إلا

أن أوليفيه لم يجد في نفسه الشجاعة الكافية ليستوقفه فتبعه حتى منزله . ثم فكر من أن يكتب إليه إلا أنه لم يستطع تنفيذ ذلك .

ماذا يكتب إليه ؟ وهل كان وحده ؟ إن أخته إلى جانبه ، حبها وطهرها كانا قد انتقلا إليه . ومجرد التفكير في أن أخته أحبت كريستوف كان يجعله خجلا أمامه كما لو كان هو أنطوانيت ، ومع ذلك كم كان يود لو تحدث إليه عنها . لكنه لم يستطع . كان سرها يلجم لسانه .

كان أوليفيه يحاول أن يلتقى بكريستوف ويذهب إليه في كل مكان يمكن أن يجده فيه ، وكان يشتعل رغبة في أن يمد إليه يده مصافحا ، ولكن ما إن يلمحه حتى يتوارى منه خشية أن يراه .

وأخيرا ، ذات مساء في صالون أحد الأصدقاء ، انتبه إليه كريستوف ، كان أوليفيه يقف بعيدا دون أن يقول شيئا ، إلا أنه كان يراقبه . كما لو أن أنطوانيت كانت معه في تلك الليلة يراها ، يراها كريستوف في عيني أخيها ، وكانت الصورة التي بعثت فجأة هي التي جعلته يخترق الصالون ؛ ليتجه مباشرة نحو الرسول المجهول الذي يحمل إليه تحية حزينة رقيقة من الروح التي ذهبت إلى عالم السعادة .



ولد رومان رولان
بمنطقة كلا ميس
(ينافر) عام
حيث ١٨٦٦

رومان رولان .. والتحليل النفسية للشخصيات

داوم على دراسته التي استكملها بليسيه لوى لوجرون ثم بالمدرسة العليا عام ١٨٨٦ وفيها تخصص في الفلسفة، ولكنه نال الأجر يجاسيون في التاريخ عام ١٨٨٩. حصل على منحة بمدرسة روما الفرنسية، وأعد رسالة عن الفلسفة والتاريخ وعلاقتها بتولستوى . قام بتدريس تاريخ الفن والدراما بالسوربون، ونشر دراسات عن المشاهير : « بتهوفن » و « مايكل انجلو » « هاندل » و « تولستوى » . بعدها كتب عددا من المسرحيات الثورية (الذئاب) ١٨٩٨ (انتصار العقل) ١٨٩٩ (دانتون) ١٩٠٠ (١٤ يوليو) ١٩٠٢ (لعبة الحب والموت) ١٩٢٥ (عيد الفصح الوردى) ١٩٢٦ (ليونيه) ١٩٢٨ (روبسبير) ١٩٣٩ . ومع هذا لم يعرف ككاتب مسرحى إلا بعد أن بلغت رواياته شهرة اكبر ، وخاصة بعد روايته « جان كريستوف » ذات الأجزاء العشرة والتي فازت بجائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى ، ثم «كولاس بروبونون»

انتقل رومان رولان للعمل بوكالة مسجونى الحرب بسويسرا عام ١٩١٤ ، فأصدر جريدة الحرب، وكتب عدة مقالات ضد النازية تتسم بالشجاعة والشرف . وفاز بجائزة نوبل للأدب عام ١٩١٦ . كتب عام ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٣٣ (النفس المطئنة) واستكمل في أربعة مجلدات دراسته عن بتهوفن ، كما كتب عن (غاندى) و (الهند) فأطلق عليه معاصروه « مثقف اليسار » . التقى بغاندى وجوركى ونظم مؤتمرات دولية مناهضة للحرب في أمستردام ، ورفض ميدالية جوته التي تمنحها حكومة هتلر .

عاد في عام ١٩٣٧ إلى موطنه الأصلي ؛ ليقضى آخر سنوات عمره حيث كتب مذكراته الشعرية عام ١٩٤٢ بعنوان (الرحلة الداخلية) وفيها تذكر صديقيه شارب بيجي وبول كلوديل .

توفي رومان رولان عام ١٩٤٤ عن ثمانية وسبعين عاما .

أما إنتاجه المتنوع فقد تميز بالالتزام الفكري الذي يعبر عن صاحبه في كل الظروف ، وبدا هذا واضحا في (مذكراته) . ولأنه كان معاصرا للفيلسوف الشهير برجسون أراد هو الآخر أن يبحث عن « الحقيقة الحية » رافضا أن يكون هذا البحث مجرد أحلام . .

ورغم أفكاره الجادة الملتزمة العميقة فإنه لم يتخل أبدا عن شاعرية التعبير في أسلوبه الذي يكشف عن الصدق ، مع نفسه وتجاه الآخرين . فكل ما كان يسعى إليه هو أن يعرف ، وأن يبلغ ما يعرفه لمن لا يعرف ، بحب وأخلاص . .

ابتدع رومان رولان شخصية (جان - كريستوف) كالنغمة الدالة التي تتردد في كل الألحان ، ألحانة أو رواياته ، وهي الشخصية التي دعت لإطلاق تعبير « الرواية النهر » علي هذا النوع من الروايات ، ربما لأنها شخصية تتمدد في كل رواياته علي الرغم من أن كل رواية لها موضوعها المستقل وشخصياتها الخاصة وأحداثها المختلفة . وتعتبر « الرواية النهر » تعبيراً موسيقياً أيضا يصلح للسيمفونيات البطولية ، فقد كتب رومان رولان عشر روايات هي : (الفجر) ١٩٠٤ (الصباح) ١٩٠٤ (المراهق) ١٩٠٥ (الثالثة) ١٩٠٧ (السوق على الطريق) ١٩٠٨ (أنطوانيت) ١٩٠٨ (في البيت) ١٩٠٩ (الصديقات) ١٩١٠ (التنزه الحار) ١٩١١ (النهار الجديد) ١٩١٢ . وكلها تنتمي إلى (جان كريستوف) كنوع من العشارية ،

كما نقول : ثنائية وثلاثية ورباعية وسباعية وهكذا مثل ثلاثية نجيب محفوظ ورباعية داريل ، وهو نوع فريد قدمه رومان رولان وحده على مدى التاريخ الأدبي ، فهو مختلف تماما عن أجزاء الرواية الواحدة المتصلة أيا كان عدد أجزائها مثلما فعل مارسيل بروست في عمله الضخم (في البحث عن الزمن الضائع) والمكون من خمسة عشر جزءا بسبعة عناوين رئيسية مختلفة .

وقد أراد رولان أن يصور عذاب الأبطال ؛ ليصور في النهاية عصرا بأكمله وكأنه متحف يضم كل محتويات العصر من التجارب الإنسانية في مراحل الطفولة والصبا وفي حالات الحب والصداقة ، في إطار من الأخلاق والتضحية وإنكار الذات ، سواء عن طريق الحب الأخوي أو عطاء الأمومة ، وفي هذا يتم الصدام بين المثالية والواقعية على مستوى الأحداث والشخصيات كما يتم الصدام بين الرومانسية والغنائية على مستوى أسلوب العرض الأدبي والمذهبي .

ولقد ظهرت جليلة ذكريات الكاتب الشخصية وهي تنخلع إما عمدا أولا إرادية على الشخصيات الروائية .

كما ظهرت واضحة جليلة العلاقة بين الكائنات والأشياء من خلال الإرث التتابعى أو تواصل الأجيال كنهج داخلى كما الماء المتدفق في النهر الجارى . فهو يرى أن جان كريستوف هو نهر الراين الذى يصب في البحر، وهي ليست تعبيرات خيالية ومجازية، ولكنها تشكل أصوات النهر الداخلى . فنهر الراين يجرى أحيانا في القاع ، قاع البيت ومن النافذة وعلى الدرج كالحديقة المتحركة .

وأخيرا ظهر واضحا جليا هذا المزيج السعيد بين الفن والملاحظة، فالموسيقا عنده ليست في الألحان وحدها ، فهي في الطبيعة قبل أى شىء :

في الغابات ، في الجبال ، في السهول ، وفي بطاقات الطفولة والشباب ؛
ولهذا نجد البيانو من الأثاث الدائم ، والعزف من الهوايات الأساسية .

في هذا الجو ينشغل رولان بالعدالة الضائعة أو الظلم الإنساني ،
والاجتماعي ، فيتعذب ليس لعذاب أبطاله ، ولكن كعذابهم ، ويتألم ليس
لآلامهم ولكن كآلامهم .

وفي هذا الجو نقف على صعود الأبطال كما نقف على هبوطهم ، سواء عن
طريق الحب الأول أو الأزمة الاقتصادية الأولى أو الفشل الدراسي الأول ،
وهكذا

وفي هذا الجو أخيرا نلمس النقاء المطلق ، والسذاجة البكر ، والعبقرية
المبكرة ، والنبيل الأصيل ، ولكنها السعادة بغير غد .

وكم من الحداد وسط كم من الأعياد . وهواء نقى ، وعصافير طليقة ،
وصوت الريح ، وركن في السماء الزرقاء وهي تضحك أمام النافذة ، وشريط
من أشعة الشمس يفترش الفراش من خلال الستائر المسدلة . عالم من
الطفولة الأسرية ، غلالة تتمزق ، تكشف عن روح الطبيعة السكرى تلك
القوة ، سواء كانت مفيدة أو غير مفيدة لها مخاطرهما . فالشمس لا توصف
بأنها أخلاقية أو وليست أخلاقية ، إنها هي كما هي ، يكفي أنها تقهر
الليل .

أما أنطوانيت فهي رواية تتضمن كل المكونات الحياتية والنفسية الأثيرة
لدى رومان رولان : الأسرة الثرية التي يتسبب عائلها في تحقيق الرفاهية
لأسرته ، زوجه وابنه وابنه ، ثم فجأة يتسبب أيضا في قهر هذه الأسرة بعد أن
يغامر بيماله ، تضييع الثروة نتيجة للدخول في متاهات الأطماع ، وتضييع
حياته نتيجة لليأس والانتحار في نهاية الأمر ، فلا تجد الأسرة غير الهروب من

المدينة الصغيرة التي كان يعيش فيها أفرادها منعمن بالمال والجاه والسمعة الطيبة ، وتوجه الأسرة إلى باريس قلب العالم الصاخب حيث لا رافة ولا رحمة ، عجالات الحياة تدور وتدرس من لايدور معها . وبعد أن تفجع الزوجة في شقيقتها أقرب الناس إليها ، وبعد أن تفجع في الحياة ذاتها ترحل وهي آسفة على الابنة الفتاة والابن الصبي غير مطئنة على حياتهما من بعدها ، وتبدأ الابنة رحلة الشقاء ، تتحمل العبء وحدها ، عبء إعاشة نفسها وعبء إعاشة واستكمال دراسة شقيقها . وبعد القصر المنيف في المدينة ، والشقة المتواضعة في باريس ، تضطر أنطوانيت (وهو أيضا اسم الرواية إلى الانتقال إلى شقة أكثر تواضعا فوق أحد الأسطح ، ومع هذا بدأت الحياة تبتسم لهما واقترب الابن من نهاية المطاف ودق قلب الفتاة . وفجأة تمرض الفتاة مرضا مزمنًا وتبدأ صحتها في الانحدار ، وتفتحم المخاوف على شقيقها تعتصرها أكثر مما يعتصرها المرض ، وتفيض روحها وهي توصي الجميع على الشقيق الذي لم يبدأ رحلة الاستقرار بعد .

وفي هذه الرواية الإنسانية التي تصور صعود وهبوط الإنسان ، يلجأ رولان إلى التحليل النفسى للشخصيات بداية من الأب الثرى والأم شديدة الجمال والابنة الذكية الطيبة والابن الساذج الانعزالي ، وحوهم جميعا نماذج المجتمع الغربية والسائدة ، ومن الفجاجة والردالة والقبح والندالة إلى العطف والكرم والمؤازرة ، وهكذا كل النماذج السيئة والطيبة تجتمع في مجتمع واحد كبير يتلعب كل شيء وكل البشر .

وهكذا ركز رولان على شخصية أنطوانيت (التي تحمل الرواية اسمها) على اعتبار أنها البطل الحقيقية المحركة للأحداث والتي تحركت بها وحركتها الأحداث أيضا . ثم يتناول الابن بكثير من التحليل أيضا ، على اعتبار أنه

القطب الثانى فى فلك حياة هذه الأسرة المنكوبة - ثم يتعرض للأب وهو البداية الطبيعية لمسيرة تلك الأسرة ، وهو سبب رغدها ونكبتها فى الوقت نفسه ، لأنه مظلوم فيما حدث ، فقد خدع وكان هدفه نبىلا ، ودفع ثمن خطئه حياته ، ولكنه فى الوقت نفسه أضر بأسرته وأساء إليها . وأخيرا يتعرض رولان بالتحليل لتلك المرأة الرائعة الجمال شديدة الحساسية التى بكت زوجها وتفرغت لولديها وعانت من أجلها حتى ضعف القلب ولم يعد يتحمل الانفعالات والصدمات والمآسى ؛ لتسلم الراية للابنة التى قامت قدر ما استطاعت بدور الأم لشقيقها ، وكافحت أكثر وعانت أكثر حتى ثقل بها الحمل وأثقلها وراحت ضحية التضحية . .

ومع كل هه المآسى لانحس بالمليودرامية فى هذه الرواية ؛ لأنها تقوم على أحداث متتابعة بحيث تؤدى المقدمات إلى النتائج كما تعلم رولان من الفلسفة ، بلا صدف ولا مفاجآت ولا افتعال ، فكل شىء خاضع للمنطق ، وكل شىء محكوم بالظروف . ولأن رولان محلل دارس أيضا لم نلاحظ أى خلل فى بناء الشخصيات الرئيسية ولاحتى الشخصيات الثانوية العابرة . .

ومع أن الأحداث كثيرة فإنها غير متشعبة وغير مستفيضة ، بل مركزة ومحددة . كما أن الأسلوب يتميز - رغم كم السواد والحزن - بالإشراق والبريق واللمعان ، فهو أسلوب يعتمد على الصورة الوصفية وتكوين مناخ طبيعى يربط بين الطبيعة والإنسان والأشياء وكافة الكائنات الحية من زهور وطيور إلى جانب الشمس والقمر والنجوم والسحب والأمطار . .

لقد استطاع رومان رولان فى هذه الرواية أن يضع الحياة فى كتاب أو أن

يجعل من الحياة كتابا مفتوحا . ولعلها تكون قد ساهمت مع غيرها من الروايات في حصوله على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩١٥ بعد كتابة هذه الرواية (أنطوانيت) بسبع سنوات ، تلك الرواية الفرنسية العالمية معا !

فتحي العشري



۱۱

۱۱

فتحي العشرى

- تخرج في كلية
الأداب - جامعة
القاهرة - قسم

اللغة الفرنسية وآدابها .

- عمل منذ تخرجه بجريدة الأهرام محرراً بالقسم الأدبي ، ثم نائباً لرئيس القسم ، ثم رئيساً لقسم السينما ومشرفاً على صفحة المسرح . أصبح مسئولاً عن لقاءات واتصالات نجيب محفوظ ومتحدثاً رسمياً له منذ فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٨٨ .

- أعد العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية وقدم بعضها .

- رأس تحرير سلسلة الرواية العالمية ، وكان مديراً لتحرير مجلات الفيصل ، وزينة ، وكوكب الشرق .

- سكرتير عام جمعية محمد حسين هيكل ، وأمين عام جمعية المسرح ، ونائب رئيس جمعية كتاب ونقاد المسرح .

- عضو اتحاد كتاب مصر ، عضو نقابة الصحفيين ، عضو نقابة السينمائيين ، عضو نقابة المهن التمثيلية ، عضو جمعية كتاب ونقاد المسرح ، عضو الأمانة الدائمة لجوائز المسرح القومية ، عضو لجنة المسرح بالمجلس الأعلى للثقافة ، عضو لجنة إعداد بانوراما المسرح المصرى .

- شارك في العديد من المهرجانات العربية والعالمية في فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا ، و النمسا ، وإسبانيا ، وروسيا ، والصين ، والأردن ، ولبنان ، وسوريا ، و السودان ، والعراق ، والسعودية ، والبحرين ، وقطر ، والسويد . .

- له أكثر من عشرين كتاباً بين الترجمة والتأليف : مهاجر بريسبان - الآلة
الجهنمية - انفصالات - ليلة القتلة - دون كيشوت - الجحيم - صحراء
الحب - ليلة القدر - أزمة إنسان العصر - كهف الحكيم - دقائق
المسرح - مفكرون لكل العصور - قمم عربية وغربية - ألوان العصر -
نبضات المسرح - فصل في الكونغو - كوكتو والسينما - المعقول
واللامعقول - دعوة للقراءة . .

اللا أخلاقي .. أندريه جيد
العجوز والبحر .. أرنست هيمنجواي
الأم الكبيرة .. جابريل جارسيا ماركيز
صحراء الحب .. فرانسوا مورياك
شعب يوليو .. نادين جورديمر
أمير الذباب .. وليام جولدينج
أنطوانيت .. رومان رولان
الغريب .. ألبير كامى
أحلام الناي .. هيرمان هسه
الأم .. جراتسيا ديليدا
ولم يقل كلمة .. هاينرش بل
مراعى الفردوس .. جون شتاينبك
مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف
رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك
الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

الدار المصرية اللبنانية

